سُنَّةُ الإِبْتِلَاءِ



تأليف

الشيخ

عَبْدُ اللهِ سُعَيْدٌ رَحِمَهُ الله

تقديم

الشيخ

أبي يحي الليبي حفظه الله

سنّة الابتلاء

بقلم الشيخ المجاهد الشهيد

عبد الله سعيد

[رحمه الله]

تقديم الشيخ المجاهد

أبي يحي الليبي

[حفظه الله]

مركــز الفجــر للإعــلام

ـــ بسم الله الرحمن الرحيم ـــ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:
قدِّر لهذه الرسالة أن يتأخر خروجها إلى هذا الوقت لتكون شاهدةً لنفسها على أن ما حوته سطورها ودونتها كلماتها لم يكن بهرجةً من القول وزوراً، فما خرجت لنور النشر حتى مرَّت على مخاضٍ عسيرٍ مسَّها مع شيء من البلاء الذي ذكرت أنواعاً متعددةً منه فحلَّ بها عناء التأخير لتحكي من خلاله فصول الرحلة الطويلة التي شقَّتها وعانتها حتى فُرِّج عنها وتيسَّر أمرها وقد وسِّد كاتبها الثرى مضرجاً بدمائه ناثراً أشلاءه بعد أن ازدحمت لحظات عمره بالأعباء وأثقلت بالأنواء وامتلأت بالصوارف فلم يجد وقتاً كافياً لمراجعتها حق المراجعة فبقيت حبيسةً أسيفةً صابرةً تنهج نهج مؤلِّفها الذي تقلَّبت به الحوادث وصوارف الأيام بين أحزانٍ وأفراحٍ، وشدائدَ وخطوبٍ، وسجون وقيود، وأسفار وتسيار، جابَ فيها الأرض من قطر إلى قطرٍ، وبلد إلى بلدٍ، وقارَّةٍ إلى قارَّة وهو لا يكل ولا يمل عن الجد والعمل، وقد كساه الله حلَّةً بهيةً من حُسن الخلق ولين الطبع، ورقة القلبِ، وطلاقة الوجه، وبشاشة المُحيَّا، وحلاوة الحديثِ، وسرعة الابتسامة، وخفض الجناحِ، وكرم المعاشرةِ، وجدٍّ في نفع النَّاس، واجتهادٍ في العبادةِ، ومحبةٍ في قلوب الأصحابِ، يألفُ ويؤْلف، ووالله لقد رأيت من تواضعه وهضمه لنفسه، وحلْمه ما يحيِّر الألباب، هذا مع أنك لا تكاد تجد أحداً يخدشه بكلمةٍ أو يؤذيه بحرفٍ، ولو فعل! لما تلقَّاه إلا بالصمتِ وحسن السمتِ، وسرعة النسيان لما كان ومواصلة الصحبة وكأن شيئا لم يحدُث، ولا والله ما زدتُ في حقِّه عما قلت، فهو كذلك وزيادة كما نحسبه والله حسيبه.
كتب الله لي معرفته وصحبته -على آمادٍ تقطعها الأسفار- من عشرين عاماً، ومنذ أن تعرفتُ عليه في ولاية لوكر بأفغانستان حينما كان يدرِّسنا كتابَ فقه السنة في المركز= وأنا لم يخالجني شكٌّ أبداً أن الشيخ عبد الله سعيد سيكون شهيداً-كما أحسبه-، وذلك لما أكرمه الله به من قلبٍ صافٍ نقيٍّ، ونفسٍ قريبةٍ سهلةٍ، بعيدة كل البعد عن تلك الأمراض الرديِّة قليلها وكثيرها من حسد وحقد وعجب وغرورٍ وترفُّعٍ، ولم يكن يدور في خلدي

أنه سيبقى طوال هذه المدةِ، ويخوض غمار مصاعب الحياة والهجرة حتى شرفه الله بقتال أمبراطورتي الطغيان الاتحاد السوفييتي سابقاً ثم أمريكا لاحقاً.

قضى قرابة ربع قرنٍ من عمره في ساحات الجهاد والإعداد والهجرةِ، ولا يكاد يكلَّف بمهمة إلا وترى التوفيق يحالفه فيها، وكان مجِدًّا في طلب العلم والمطالعة كثير الكتابة والتعليق بحيث ترى بجانبه أقلاماً فارغةً فهو قد اشتُهِر بيننا أنه لا يدع القلَم حتى يُكمل حبره، فكان إخوانه على وجه المداعبة ربما وجدوا قلماً فارغاً في طريقهم وسطَ كابل فيقولون نظنَّ أنه للشيخ عبد الله سعيد!.

وقد كان كتب كتابا في أحكام الغنائم بصورها ونوازلها المعاصرة، وبقي في تجميع مادته وصياغته مدةً طويلةً حتى بلغ عدد صفحاته ما يقارب الخمسمائة صفحة، فلما جاءت الأحداث ضاع الكتاب وكان أمر الله قدرا مقدورا، ومع شدة الرزية في ذلك لمن يعرف عناء الكتابة والتجميع والاستخراج من بطون الكتبِ إلا أنني لم أسمعه يوما يذكره أو يتأسف على ذلكَ وكأن حاله يقول إن كنتُ كتبته لله فالأجر باقٍ ولن يضيع، وإن كان لغير الله فقد كفاني الله شرَّه، وما زال في قلبي طمع أن يُعثر له على أثر وما ذلك على الله بعسير.

عرفته السودان وعرفه أهلها الطيبون وشبابها وأحبوه حباً شديداً، وكانت علاقته بمشايخها ووجوهها وطيدةً، وزار جزيرة العرب، والتقى بكبار علمائها ودعاتها واستنصحهم لإخوانه واستفتاهم في عدد من النوازلِ وكان من بينهم الشيخ عبد الله بن قعود رحمه الله.

وعندما يسر الله لنا النجاةَ من سجون عباد الصليبِ، وقد وجدتُ أكثر الرفقة في السجونِ، وكان الله سبحانه قد نجاه (بالهربِ) من سجن رافضة إيران بتدبيرٍ ولطفٍ منه سبحانه، ففرحت أشد الفرحِ بوجودِهِ فكتبت إليه رسالةً قلت فيها [فمن أبي يحيى - حسن قائد - إلى أخيه؛ بقية الصِحاب، ورفيق دربه في اليُسر والصعاب؛ همام، زاد الله همته في طاعته، وأزال كربه وهمه وغربته، وأجزل له عطاءه وضاعف مثوبته.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تتزاحم الكلمات بين أضلعي، وتختلف العبارات علي، وتتسابق المعاني لنيل شرف السبق في إبدائها، فذكريات صارت لبعدها في أعماق الذاكرة، تحرك عواطفي وتزلزل جوانحي،

وهموم تنكت فؤادي وتكلم قلبي تقض مضجعي، غربة، وضعف، وتخطف، وخوف، وفقدان لأحبة، وذهاب الأنيس، وتخلي الصديق، وغياب الرفيق، وطول في الطريق، وجهد مرهق...

حِمْل؛ لو جعل على جبل لانهد، أو ما زج النهار المشرق؛ صيره ليلا دامساً.

صبت عليَّ مصائب لو أنها*** صبت على الأيام صرن لياليا

ولكن وسط هذه الظلمة الحالكة، والفتنة العارمة، والعاصفة الصرصر، نرى بقلوبنا - وهي في ضعفها - بصيصاً مشعاً يلوِّح لنا من بعيد، وراية علية ترفرف فتشدنا إليها، وتجذبنا نحوها، وقد رُقم على أحد أوجهها: {والعاقبة للمتقين}، ويتمايل بها النسيم فنرى على صفحتها الأخرى: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون}، فيهدأ برؤيتها روعنا، وتستقر نفوسنا، وتنشرح صدورنا، وتثبت أقدامنا، ويزداد نشاطنا، وتنبعث آمالنا، وتخف آلامنا، ويتلاشى يأسنا.

أخي الحبيب، ورفيقي اللبيب...

مقدمة لا بد منها، وإن كانت جافة يابسة خالية من العواطف، مليئة بالعواصف، بعيدة عن نسيج الرقة، ورقة النسيج، فلعنا اليوم نتزود بهذا وقد قل الزاد، ونتصبر به وقد نفد الصبر أو كاد، ونتواصى به وأين أين المواصي والمواسي، القلوب متطلعة، والأعناق ممتدة، والأعين مترقبة، والنفوس متململة، والأجسام كليلة، والكل ينادي بلهف ويسأل بشغف: {متى نصر الله}؟ فيأتينا جواب من كتاب ينطق بالصدق، ومنبع يفيض بالحق، ونور يبث اليقين، ويبدد ظلمة الوهن المهين: {ألا إن نصر الله قريب}، فوربي إنه لقريب، لا مرية فيه ولا ريب: {فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون}.

أوَليس هو وعد من لا يخلف الوعد؟! وعهد من لا ينقض العهد، {ومن أصدق من الله قيلاً}، {ومن أوفى بعهده من الله}، {وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون}.

أخي الكريم...

أسأل عن أخباركم وأحوالكم وصحتكم وأوضاعكم ومعنوياتكم؟ لا سيما وقد اجتمعت عليكم صنوف الغربة، ونسجت حولكم خيوط الوحدة، أعانكم الله وربط على قلوبكم.

فعلم الله - أخي الكريم - كم كانت فرحتي إذ وجدتك - بعد فقد وغياب الكثير - ما زلت معافى في نفسك ودينك، ثابتاً على الحق مستمسكاً به، وازددت فرحاً على فرح؛ بعد علمي بنجاتك بعد أسرك، وعافيتك بعد بلائك، فقد ذقتُ ما ذقتَ، ورأيتُ ما رأيتَ، وعلمتُ علم اليقين أية نعمة كساك الله ثوبها، وأي فضل غمرك الله به.

فاستمسك بالعروة الوثقى، واثبت على الطريق - وإن قل أو انعدم الرفيق والصديق - فالحق أحق أن يتبع، والصدق أولى بأن يُستمع، ولا تستوحش من قلة السالكين، وكثرة المتهالكين وردد مع الشهيد الرشيد شعره السديد سيد قطب - السيد القطب -

أخي سر ولا تلتفت للوراء *** طريقك قد خضبته الدماء

ولا تلتفت ههنا أو هناك *** ولا تتطلع لغير السماء

فمخذول... مخذول من يضيع نعمة الله بعد أن يوصلها إليه ربه، ويكرمه بها وليه.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الشاكرين لمننه، المتحدثين بنعمه، الذاكرين لفضله، ونعوذ به من سلبها بعد وهْبها، وما ذلك إلا بما تكسب الأيدي وتقترف الجوارح: {ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم}، فاعضض عليها بالنواجذ بدوام الشكر وكثرة الذكر، فإن الشكر قيد النعم، والكفر - كفر النعمة - سبيل النقم: {وإذ تأذن ربكم لئن شكرتكم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد}، {واضرب لهم مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون}

إذا كنت في نعمة فارعها *** فإن المعاصي تزيل النعم

وحُطْها بطاعة رب العباد *** فربُّ العباد سريع النِّقم

وأكثر من سؤال الله العافية، فإنها كلمة ضمت خيري الدنيا والآخرة.

فعن العباس - عم النبي صلى الله عليه وسلم - قال: قلت: (يا رسول الله، علمني شيئا أسأله الله تعالى)، قال: (سلوا الله العافية)، فمكثت أياما، ثم جئت فقلت: (يا رسول الله، علمني شيئا أسأله الله تعالى)، قال لي: (يا عباس، يا عم رسول الله، سلوا الله العافية في الدنيا والآخرة).

وأكثر من الدعاء، ولا تقنط من رحمة الله، قال الله تعالى: {ولا تقنطوا من روح الله}.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.]وهي منشورة في منبر التوحيد والجهاد جزى الله القائمين عليه خيراً.

ثم التقيت به بعدَ خمسِ سنواتٍ من الفراقِ وقد علاه الشيبُ وكساه وقاره، فلم نزل بعدها سوياً حتى جاء يوم الوداع.

ففي أول يوم من شهر محرم لعام واحد وثلاثين وأربعمائة وألف لهجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، جلستُ مع الشيخ عبد الله سعيد رحمه الله في واد من الأودية لبعض الأمور قبيل المغرب، وكان صائماً، ثم اتجهنا إلى أحد المراكز، وجلسنا قليلا مع إخواننا المجاهدين حتى أذن المغرب فأفطر على تمراتٍ وحسوة ماء وكانت هي آخر رزقه من الدنيا، وكانت الطائرات الأمريكية تحوم بكثافةٍ فانقسم الإخوة إلى ثلاث مجموعات لأداء الصلاة أمَّ هو أحدَها، فلما شرع في صلاته إذا بالصاروخ يترل عليه وعلى من معه من المأمومين، فتفرقنا على وجه السرعة وبدأتُ أسترجع وأحوقل وكنت أظنه قتل من أول صاروخٍ فبعد قليل من الوقت نادى بصوته الندي (يا شيخ "أبو يحيى" نحنُ انْدَوْرُوا عليها من زمان) (يعني نحن نبحث عن الشهادة منذ زمن) ثم قال "سامحونا"، ولم أتمكن من رؤيته ولا من الوصول إليه لكثرة الصورايخ وصعوبة الحركة ثم فاضت روحه وهو في طريقه إلى المستشفى وكان آخر كلامه لا إله إلا الله.

نسأل الله أن يتقبله ويرفع درجته ويجمعنا به في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدرٍ

فإنْ تَكُنِ الأيامُ فَرّقْنَ بَيْنَنا*** لقدْ بانَ مَحْمُوداً أخي يومَ وَدّعا

وعِشْنا بخيرٍ في الحياةِ، وقبلَنا***أصَابَ الْمَنَايا رَهْطَ كِسْرى، وَتُبّعَا

وَكُنّا كَنَدْمَانيَ جَذِيمَةَ حِقْبَةً***من الدّهْرِ، حتى قيلَ لن يَتَصَدّعا

فَلَمّا تَفرّقْنا كأنيّ ومالِكاً***لطول اجتماعٍ، لم نَبِتْ ليلةً مَعَا

فتىً كانَ أَحْيَا من فَتاةٍ حَيِيّةٍ***وأشجَعَ منْ لَيْثٍ إذا ما تمَنّعا

والحمد لله رب العالمين .

وكتبه أبو يحيى الليبي (حسن قائد) ٩/محرم/١٤٣٣ه

بسم الله الرحمن الرحيم

سنّة الابتلاء

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لأجلها خُلِقَ الخَلق، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وشرعت الشرائع، ونصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وعليها قام سوق الجنّة والنار، وبها انقسم الناس إلى مؤمنين وكفار، وأبرار وفجار، وسعداء وأشقياء، وعليها أسست الملّة، وجُردت سيوف الجهاد، وهي حق الله على العباد، وبها تكون النجاة يوم المعاد.

وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، وخليله من خلقه، وأمينه على وحيه، أرسله ربّه على حين فترة من الرسل، واندراس من الكتب، وطموس من السبل، فبلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

ترك أمته على المحجّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلاة ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغرّ الميامين، وعلينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

أما بعد:

ربِّ يسر ولا تعسر

اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً.

اللهم سهل لنا أمورنا، واجعل أعمالنا خالصة لوجهك الكريم نلقاك بها يوم الدين.

آمين.. آمين

الظروف التي كتبت فيها هذه الرسالة

أصل هذا الموضوع كان عبارة عن درس ألقيته على مسامع بعض الإخوة الذين كانوا معي حينما كنت بسجن إحدى الدول بتهمة الانتماء إلى جماعة إسلامية، ثم كتبته بعدُ في ورقات وأرسلت به لبعض إخواننا في السجن الذين لم تتوفر لي فرصة الجلوس معهم، فاستحسنوه، وذكروا إنهم قد استفادوا منه كثيراً، وذلك لأن موضوعه يمس حالهم ويحكي شيئا من ظروفهم، فعزمت على إعادة صياغته وإرساله لبعض إخواننا الذين هم خارج السجن نصحاً وتذكيراً وتنبيهاً وعظة، لا سيما وإني كتبته إذ كتبته والقلب يعتصر بآلامه ويترف بجراحه، وليست النائحة الثكلى كالمستأجرة، فهو وإن كان -كما سترون- بضاعة مزجاة وزاداً زهيداً، إلا أني أرجو أن يكون برداً وسلاماً على قلوب ألهبتها نار الفتنة، وثباتاً لأفئدة زلزلها وقع الابتلاء، وبعثاً لآمال في نفوس أرهقها طول المسير، وأنيساً لها في طريق شائك قل فيه المؤنسون وكثر فيه الآيسون.

ومع قلة البضاعة فقد تحملت كُلفة الكتابة متوخياً سهولة العبارة والنأي عن التعقيد والابتعاد عن التصنع، ورغم ذلك كله فلا أزعم أني وفيت بكل ذلك أو أعطيت الموضوع حق حقه وذلك لأنني:

أولاً: لست أهلا للكتابة، وإنما تقحمتها تقحماً.

وثانياً: لعدم توفر الكتب والمراجع داخل السجن، إلا ما لا يكاد أن يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة مما استطعت الحصول عليه من خلال زيارة الأسرة لي، أو من خلال ما وجدته مع بعض إخواننا ممن كان مسجوناً معي.

ثم مَنَّ الله عليَّ بعد ذلك بالنجاة وتفريج الكرب بعد انقطاع الأسباب والحيل، وانتشار الظنون، فيسر الله لي –تفضلاً منه ومنة ومنحة- الأسباب للهروب من أحد السجون المركزية التي نقلت إليها، مع أنها كانت أشدّ تحصناً، وأكثر مراقبة، وأعظم اهتماماً من الناحية الأمنية، وأبعد ما تكون عن إمكانية الهرب، ولكن الله يسر وسهل الهروب (لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه) فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ومن التوافق العجيب، والتقدير الغريب، أن تاريخ هروبي كان هو نفسه تاريخ دخولي لهذا السجن المركزي، أي بعد أن أمضيت فيه سنة كاملة، وما زلت منذ ذلك الوقت حالاً مرتحلاً، متخفياً ومتنقلاً من مكان إلى آخر، فبسبب هذه الظروف وغيرها مما لا يخفى لم يتيسر لي التفرغ لتنقيح وتدقيق ما كتبته قبلُ إلا في أوقات قليلة مع شرود الذهن، وكثرة الصوارف، وتقلب الظروف، فأضفت إليه ما هَيأ لي ووقع بين يدي من نقول اقتبستها من بعض المصادر التي حصلت عليها.

وبسبب خشية الرجوع إلى السجن –لا قدر الله- مرة أخرى في أي لحظة، أحببت نشره على ما فيه من ضعف، لعل الله أن ينفع به القارئ الكريم، فيكون له تذكرةً عند النسيان، وزاداً في طريقه إلى رضوان الله والجنّة، فعجلت بإخراجه، وبادرت بإظهاره، فما يتسير اليوم قد يتعسر غداً، ولعلمي أن المسلم مبتلى دائماً، وخاصة من سلك طريق الحق، ولازم سبيل الجهاد في سبيل الله، لا سيما في هذا الزمان الذي بلغت فيه الفتن ذروتها، ووصلت صور البلاءات أوجها، واشتدت وطأة المحنة على المجاهدين، وأطبقت أمم الكفر واتفقت نحله على حربهم، وملاحقتهم، والتضييق عليهم، فالدنيا سجن المؤمن جنّة الكافر.

والله تعالى الموفق للصواب والسداد والآخذ بأيدينا إلى سبل الهدى والرشاد، والحافظ لنا، والحفيظ علينا، وهو مولانا ونصيرنا نعم المولى ونعم النصير.

- **العبد مبتلى بالسراء والضراء:**

إنّ العبدَ لو نظر في حال نفسه وحقيقة أمره مدى عمره لوجد أنّه يتقلّب بين أمرين: إمّا نعماء وسراء، فيستلزم منه شكر الله عليها، وإمّا مصائب ومحن وبلاء، فيستلزم منه الصبر عليها، ولا تحول له ولا انتقال عن ذينك الحالين وهو مع ذلك مطالبٌ بتغيير حاله إلى الحسن الذي يرضي الله تعالى والأخذ بالأسباب الشرعية في ذلكَ قال تعالى : {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١].

وكما أن البأساء والضراء هما ابتلاء وامتحان واختبار من الله تعالى لعبده، ليظهر بهما صبر الصبور، وتسخط الجحود، فكذلك السراء والنعماء كثيراً ما يكونان ابتلاء

وامتحاناً واختباراً من الله تعالى لعبده، ليظهر بهما شكر الشكور فيزداد بهما منحة ونعمة، ويظهر بهما كفر الكفور فينال بهما بعداً عن ربه ونقمة، قال الله تعالى على لسان العبد الشكور ابن العبد الشكور سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام: {فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}(النمل: ٤٠).

- **صفة العبد الموفق**

فمن صبر عند البأساء والضراء حصَّل المنى، ومن شكر عند السراء والنعماء نال الرضى، وهو حال المؤمن الصادق المحتسب، وصفة العبد الموفق، الذي يعلم أن ربه ومولاه يحب الصابرين والشاكرين، فما ابتلاه إلا ليرفع درجته أو يُكفِّر سيئته، وما أنعم عليه إلا ليزيد شكره ويضاعف بره، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراَ له". رواه مسلم عن صهيب رضي الله عنه.

فالله عز وجل قد يبتلي عباده بالسراء والنعماء كما يبتليهم بالبأساء والضراء، فيُعطي ليُشكر، ويبتلي ليَعلم من يصبر.

قال الله تعالى: {فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ}(الفجر: ١٦)، ففي كلتا الحالتين هو في ابتلاء وامتحان دائم من الله عز وجل، وهذا أمر قلَّما يتفطن إليه متفطن إلا من وفقه الله من عنده، وفتح له باب المعرفة به وبسننه، فكم من نعمة عظمت وجلت فرح بها أهلها، فبطرت بها قلوبهم، وانعمت بصائرهم، وازداد طغيانهم، وهم لا يدرون ولا يدركون أنهم بها مستدرجون، وإلى حتفهم منساقون، فانقلبت -بما كسبت أيديهم- وبالاً عليهم، وكانت -لفرط غفلتهم- سبباً في هلاكهم كما قال سبحانه: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى}(العلق: ٧)، وقال سبحانه: {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ}(الأنعام: ٤٤)، وكما قال سبحانه: {قَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ

الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ}(سبأ: ١٥ - ١٧)، وفي مقابل ذلك، كم من محنة بشدتها وضيقها، صبر أهلها، واحتسبوا لأواءها، وترقبوا وتيقنوا حسن عاقبتها، فما هو إلا كلمح الطرف حتى صارت عزاً لهم، وسبباً لرفعة مترلتهم عند ربهم، وباباً لمواهب الخير الظاهرة والباطنة عليهم، فانغمرت مرارتها في بحر لذة مآلها، كما قال سبحانه:{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}(السجدة: ٢٤)، وقال سبحانه: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ}(الأعراف: ١٣٧)، وقال عز وجل:{واذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (الأنفال: ٢٦).

ولهذا قال الله سبحانه مبيناً لوجهي الابتلاء خيراً وشراً: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}(الأنبياء: ٣٥).

- **لماذا الإبتلاء:**

والحاصل أن أصل البلاء الاختبار، فتارة يكون بالخير، وتارة يكون بالشر، والله عز وجل يختبر عباده ويبتليهم حيناً بالسراء والنعماء ليشكروه، وحيناً بالبأساء والضراء ليصبروا، قال الله تعالى: {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}(الأعراف: ١٦٨).

فالمحنة والمنحة كلاهما تكونان ابتلاء من الله عز وجل.

قد يُنعِمُ اللهُ بالبلوى وإن عظمت **** ويبتلي اللهُ بعض القوم بالنِعَمِ

- **الامتحان بالمنحة أعظم:**

وأحياناً يكون –بل كثيراً ما يحصل ذلك- الامتحان بالمنحة أعظم ابتلاء على العبد وأشد فتنة من الامتحان بالمحنة، فكم ممن تجده صابراً متجلداً عند الشدائد راسخاً أمامها رسوخ الجبال، حتى إذا هبت عليه فتنة عطاء وسعة ونعمة طارت به في كل وجهة، وألقته في كل واد كأنه قشة لا وزن لها، وما ذلك إلا لأن عقلاء الناس شبه متفقين على أن الشدائد المقدرة لا يرفعها جزع ولا يغيرها تسخط، فيصبرون لها إما صبر اختيار أو اضطرار، وأما كون النعمة مبطنة بالمحنة والسراء تكتنف البلاء فقليل منهم من يفطن لذلك فتزل في هذا الموطن الأقدام فتهوي بصاحبها في واد سحيق مُهلك لا قيام له بعده إلا أن يشاء الله، فتجد العبد يصبر عند المحنة ويتجلّد لها، ولا يشكر عند النعمة، فيطغى ويهلك بسببها، وقد ذكرنا فيما سلف بعض الآيات التي دلت على هذا المعنى، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم منبهاً أصحابه، ومتخوِّفاً عليهم – وهم من هم -: "ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم" متفق عليه من حديث عمرو بن عوف الأنصاري.

وقال عمر رضي الله عنه: (بُلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر).

- **حاسب نفسك:**

ألا فليحرص العبد على نفسه، وليحذر من التقصير في شكر نعم ربه، وليكن على بينة من أمره، لا سيما في أمر المحنة بالخير والنعم، فغالباً ما تكون هي موطن الهلكة، ومنزل النكسة، ومنبت الوهن والفتور، ومحل الرجوع على الأعقاب، نسأل الله دوام العافية.

- **صور من الإبتلاء بالسراء :**

والابتلاء بالسراء والنعماء صوره كثيرة، وألوانه عديدة، وحالاته متنوعة، وكلها تشرأب لها النفوس، وتتطلع لنيلها القلوب، وترغب فيها الأفئدة، وتتجاذب تجاهها الأهواء، فمنها المال، والأولاد، والأزواج، والجاه، والسلطان، والرئاسة، والشهرة وغيرها،

وباختصار هي الدنيا بحذافيرها والتي جبلت النفوس على حبها قال الله تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[آل عمران: ١٤] وقال الله تعالى: {ومِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ}(التوبة: ٧٥ - ٧٦)، فهذه كانت مبدأ مسيرهم، وأول خطواهم، فتأمل إلى أين أوصلتهم أيماهم، وكيف أرداهم خُلف عهودهم، وكيف ساقهم المال إلى سوء المآل، قال الله تعالى: {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ}(التوبة: ٧٧).

- **فتنة الأموال والأولاد:**

وقال تعالى {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ}(الأنفال: ٢٨)، بل إن منها ما هو عدوٌ لصاحبها كما قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ}(التغابن: ١٤)، ومن فتنها إشغالها عن ذكر الله، وإنبات الحرص على الدنيا في القلوب، وإبعادها عن مكارم الأخلاق، وإقعادها لأهلها في مدارك السوء، وسوقهم إلى ردي الخُلُق، كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}(المنافقون: ٩)، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الولد مبخلة مجبنة مجهلة محزنة" رواه الحاكم عن الأسود بن خلف.

فالنعماء، وكثرة المال، وسعة الحال، ربما تكون ابتلاء من الله، كما قال الله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}(الكهف: ٧)، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ بالله من شرِّ فتنة الغنى كما كان يتعوذ من شرِّ فتنة الفقر سواء سواء، كما في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو بهؤلاء الكلمات: "اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار، وعذاب النار، ومن شر الغنى والفقر".

- **صور من الإبتلاء بالضراء:**

وكذلك الابتلاء بالضراء، والبأساء، صوره كثيرة، وألوانه عديدة، وضروبه مختلفة، فقد يكون بالمرض، أو بفقد المال، أو بموت بعض الأهل، أو فقدان بعض الأحبة، أو بشدة الخوف، أو بجدب الأرض والأخذ بالسنين، أو بأذى العدو، أو التشرد في الأرض، أو تخطف الناس، أو بقلة القرار وكثرة الأسفار، كما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}(البقرة: ١٥٥)، وكما قال تعالى: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}(آل عمران: ١٨٦)، وكما قال سبحانه {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}(الأعراف: ١٣٠)، وكما قال عز وجل: {وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ}(الأنعام: ٤٢).

- **كيف كان ابتلاء أيوب عليه السلام؟**

وقد تجتمع كلها أو أكثرها على عبد واحد، كما ابتلى الله عز وجل عبده ونبيه أيوب عليه السلام بالمرض وطوله، وفقد المال، والأهل، حتى أن المثل صار يضرب ببلائه، فقد نزل به من البلاء ما ألقي بسببه في مزبلة لبني إسرائيل خارج البلدة، تختلف الدواب في جسده، وعافه الناس جميعاً إلا زوجته الصابرة التي لم تنس أحسانه إليها في حال يسره، ورجلين من إخوانه كانا يغدوان عليه ويروحان.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن نبي الله أيوب كان في بلائه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلان من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان إليه، فقال لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب ذنبا ما اذنبه أحد قال صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف الله عنه! فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، قال أيوب: ما أدري ما تقول إلا أن الله يعلم كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله

إلا في حق، قال وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها وأوحي إلى أيوب في مكانه أن أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، فاستبطأته فتلقته تنظر وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاءِ وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ والله على ذلك ما رأيت أحدا أشبه به مذ كان صحيحا منك، قال: فإني أنا هو، وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح، فرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى على أبدر الشعير الورق حتى فاض"، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أبو يعلى، والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح، وأخرجه أيضا ابن أبي حاتم، وابن جريج، وصححه بن حبان، والحاكم.

وقد ذكر الله قصته في كتابه الكريم:

قال الله تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}(الأنبياء: ٨٣-٨٤)، وقال تعالى عنه أيضاً: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الشَّيْطان بِنُصْبٍ وَعَذَاب * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَاب * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَاب * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}(ص: ٤١-٤٤).

هل الجوع من الإبتلاء؟

فبلاء الضراء والشدة قد يكون بشيء من الجوع، حتى لا يكاد الرجل يجد شيئاً يسد به رمقه، أو يقيم له صلبه، أو يطعمه عياله، كما كان حال أهل الصفة زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهم حامل علم النبوة، وراويته المقدم أبو هريرة رضي الله عنه الذي يحدث عن نفسه في ذلك كما في صحيح البخاري فيقول: "لقد رأيتني وإني لأخر فيما بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حجرة عائشة رضي الله عنها مغشياً علي، فيجيئ الجائي، فيضع رجله على عنقي، ويرى أني مجنون وما بي من جنون، ما بي

إلا الجوع"، ومع هذه الشدة والمخمصة التي كان فيها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الصفة إلا أنه كان يُذكِّرهم بما أعد الله لهم من عظيم الثواب على ما هم فيه من البلاء، وذلك لتهون عليهم مصيبتهم، ويخف على القلوب والأجساد وقعها، فعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة –وهم أصحاب الصفة– حتى يقول الأعراب هؤلاء مجانين، فإذا صلى النبي صلى الله عليه وسلم انصرف إليهم فقال: "لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى، لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة" رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

- **سيدالمرسلين يعاني أشد الجوع:**

والجوع وشدته كثيراً ما كان يصيب النبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته رضي الله عنهم، وهو الذي لو أراد أن يصيِّر الله له الجبال ذهباً لفعل فعن أنس رضي الله عنه قال: "جئت النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فوجدته جالساً مع أصحابه، وقد عَصَب بطنه بعصابة، فقلت لبعض أصحابه: لم عصب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطنه؟ فقالوا: من الجوع..الحديث" رواه البخاري ومسلم، وكذلك كان حاله وحال أصحابه رضي الله عنهم يوم الخندق حيث عصبوا بطونهم بالأحجار دفعاً للجوع، وتخفيفاً من شدته، فعن جابر رضي الله عنه قال: "إنا كنا يوم الخندق نحفر، فعرضت لنا كدية شديدة، فجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: "أنا نازل" ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً...الحديث" رواه البخاري ومسلم، وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا، فقال: "لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يظل اليوم يلتوي ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه" رواه مسلم.

- **من الإبتلاء أن تكون خائفا :**

والبلاء قد يقع بشيء من الخوف، فلا يكاد العبد يجد له مكاناً واحداً آمناً يأوي إليه، ويطمئن فيه، وتستقر فيه نفسه، فتراه طريداً شريداً، خائفاً مستخفياً، مترقباً متربصاً، قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، كما كان حال الصحابة رضي الله عنهم قبل هجرتهم وإيوائهم، ولهذا ذكرهم الله سبحانه بعدها بما هم فيه من النعمة والمنة والفضل بذكر ما كانوا عليه من الخوف والتخطف والقلة والاستضعاف، إذ عظم النعم يتبين بضدها، والضد يُظهر حسنه الضد، قال الله تعالى: {وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(الأنفال: ٢٦).

- **كيف يكون الإبتلاء بنقص الأموال؟**

وأحياناً يكون البلاء بنقص من الأموال، كخسارة تجارة تذهب الربح ورأس المال، أو هلاك مال، أو سرقته، أو نهبه، أو سطو العدو عليه، أو فقر وفاقة حتى لا يجد ما يكسو به نفسه كما كان حال أهل الصفة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [لقد رأيت سبعين من أهل الصفة، ما منهم من رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته] رواه البخاري، وفي قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ}(البقرة: ٢٠٧).

- **ربح البيع:**

قال ابن كثير رحمه الله: (قال ابن عباس وجماعة: نزلت في (صهيب الرومي) وذلك أنه لما أسلم بمكة، وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل اللّه فيه هذه الآية فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة، فقالوا: ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر اللّه تجارتكم، وما ذاك؟

فأخبروه أن اللّه أنزل فيه هذه الآية، ويروى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال له: "ربح البيع صهيب" وروي عن أبي عثمان النهدي عن صهيب قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم قالت لي قريش: يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك؟ واللّه لا يكون ذلك أبداً، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلُّون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي فخلوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال: "ربح صهيب، ربح صهيب" رواه ابن مردويه عن صهيب الرومي) اهـ. مختصر ابن كثير.

فهذا حال صهيب رضي الله عنه أول أمره غنى، ومال، وسعة حال، إلا أنه آثر الآخرة على الدنيا، ونبذ زهرتها مبتغياً ما عند الله، وارتضى لنفسه الفقر وذهاب المال – وهو بلاء ومحنة – مقابل نيل رضى الله ومجاورة نبيه صلى الله عليه وسلم في مهجره.

- **البلاء بنقص الأنفس:**

وأحياناً يكون البلاء بنقص من الأنفس، بموت أحد الأبوين، أو فقد ولد حبيب، أو وِد قريب، أو أخ عزيز، أو صديق حميم، كما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم، حينما توفيت زوجه خديجة رضي الله عنها، وهي التي صدقت بما جاءه من الله، فكانت أول من آمن بالله وبرسوله، ووازرته على أمره، ثم توفي عمه أبو طالب في العام نفسه وهو أحوج ما يكون إليهما (كما قال ابن إسحاق) ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام، يشكو إليها؛ وبهلك عمه أبي طالب، وكان له عضداً وحرزاً في أمره، ومنعة وناصراً على قومه، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين.

فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً) سيرة ابن هشام٢/١١٧.

- **الأنبياء يبتلون بفقد الأحباب:**

وابتلي صلى الله عليه وسلم بوفاة أولاده جميعاً رضي الله عنهم في حال حياته ما خلا فاطمة رضي الله عنها وأرضاها.

وكما حصل لنبي الله يعقوب عليه السلام حين فقد ابنه يوسف عليه السلام مع شدة حبه له وتعلقه به، ثم فقده لأخيه، فبقي صابراً محتسباً، آملاً في رحمة الله، راجياً فضله، غير آيس من روحه، حتى اشتد عليه البلاء، وعظمت عليه المصيبة بفقد اثنين من أبنائه، فذهب بصره حزناً، واشتد كظمه، كما قال تعالى: {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُواْ تَاللّه تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}(يوسف: ٨٤ - ٨٦).

- **وأحياناً يكون بلاء الضراء بفقد الثمرات:**

وهلاك الزرع بالافات، والأخذ بالسنين، فلا تنبت الأرض زرعها، ولا تخرج السنابل حبها، ولا تُنزل السماء ماءها، فتهلك المواشي، وتيبس الضروع.

وقد جُمِعتْ تلك البلاءات كلها في قول الله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}(البقرة: ١٥٥ - ١٥٧).

- **تسلية المصاب:**

إذن فالذي يُعزي المسلم في مصابه ومحنته، ويهون عليه وقعها، ويخفف عنه شدتها، ويذهب عنه ضيقها هو عِلْمُه أن العاقبة الحسنة، والمآل الكريم بعد كل ابتلاء إنما يكون لمن صبر صبراً جميلاً، واحتسب الأجر عند ذي الفضل والجود والرحمة، واسترجع وقال عند نزول المصيبة: (إنّا لله وإنّا إليه راجعون)، فالعبد بقوله هذا يُقر ويعترف بأنّ الملك كله لله وحده، يتصرف فيه كيف يشاء بما يشاء متى شاء، فهو سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل

وهم يسألون، يعطي ويمنع، ويرفع ويضع، ويعز ويذل، ويكرم ويهين، ويبتلي ويعافي، ويحيي ويميت سبحانه كل يوم هو في شأن،: {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتترع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير* تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وترزق من تشاء بغير حساب}(آل عمران: ٢٦).

- **الدعاء عند المصيبة:**

ولهذا يُشرع لمن نزلت به مصيبة، وحل به بلاء أن يقول هذه الكلمة العظيمة الجامعة المواسية، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من عبد تصيبه مصيبة، فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اؤجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها، إلا أجره الله تعالى في مصيبته، وأخلف له خيرا منها، قالت: فلما توفي أبو سلمة، قلت كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله صلى الله عليه وسلم" رواه مسلم.

فبقوله: (إنّا لله وإنّا إليه راجعون) يَعْتَرِفُ المرء بأنه عبدٌ لله، هو خلقه، يتصرف فيه ربُّه بما شاء.

وبقوله هذا يعترف أيضاً بأنّه راجع إلى الله، وأنّ مصيره إلى ربّه ومولاه، وأنّ الأجر والثواب وحسن العاقبة حاصل له بصبره وبرضاه بما قدره عليه ربّه ومولاه.

قال الله تعالى:{إنّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}(الزمر: ١٠).

وقال تعالى: {والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار}(الرعد: ٢٣-٢٤).

- **المصائب كفارات للذنوب:**

وبصبر العبد على البلاء والمصائب والمحن تجعله يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة واحدة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى ما عليه خطيئة"

رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وقال صلى الله عليه وسلم: "ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم، حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه" متفق عليه عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

فالمؤمن إن صبر واحتسب الأجر في حال نُزول البلاء ووقوع المصيبة حتى تزول كان ذلك خيراً له، وإن شكر في حال النعماء والسراء كان خيراً له، فهو يتقلب بين الخيرين، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له" رواه مسلم عن صهيب رضي الله عنه.

- **ثمرات البلاء:**

والبلاء على ما فيه من الشدة والضيق واللأواء إلا أنه مرتع خصب يتزود فيه المرء بصبره واحتسابه للدار الآخرة، فترتفع به درجاته، وتكفر سيئاته، وتغفر ذنوبه، وهذا سوى ما يملأ قلبه في الدنيا من نور الإيمان وحلاوة اليقين ولذة المناجاة لربه، وانكساره له وخصوعه بين يديه، وكثرة تضرعه وإلحاحه عليه، والالتفات عما سواه، فيورثه ذلك انشراحاً في الصدر، وسكينة في القلب، وطمئنينة في النفس، ويعرف هذا حق المعرفة كل من ناله شيئ من الأذى في سبيل الله حين توصد أمامه الأبواب وتفقد الأسباب ولا يبقى إلا رب الأرباب، ولهذا قيل: إن البلاء سوط يسوق الله به العباد إليه.

- **المسلم دائما في ابتلاء:**

فالمسلم وهو يسير في طريقه إلى ربِّه عليه أن يعلم أنّه دائماً يتقلب بين هذين الأمرين: سراء وضراء، وشدّة ورخاء، وبأساء ونعماء، لا يكاد ينفك عنهما أبداً، نِعَمٌ من الله تترادف عليه، فيستلزم منه الشكر له، ومحن ومصائب وابتلاءات، فيستلزم منه الصبر عليها.

وعلى العبد أن يعلم أنّه في امتحان واختبار دائم في هذه الدنيا، قال الله تعالى: {ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً}(هود:٧، الملك:٢)، وقال تعالى: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}(الأنبياء: ٣٥).

(إذ المقصود هنا أنه لا بد من الابتلاء بما يؤذي الناس، فلا خلاص لأحد مما يؤذيه البتة، ولهذا ذكر الله تعالى في غير موضع أنه لا بد أن يبتلي الناس، والابتلاء يكون بالسراء والضراء، ولا بد أن يبتلى الإنسان بما يسره وبما يسوؤه، فهو محتاج إلى أن يكون صابرا شكورا.

قال تعالى: {إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا}(الكهف: ٧)، وقال تعالى:{وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون}(الأعراف: ١٦٨)، وقال تعالى: {فأما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى}(طه: ١٢٣-١٢٤).

- **حفّت الجنة بالمكاره:**

قال تعالى: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين}(آل عمران:١٤٢). وقد قال قبل ذلك في البقرة التي نزل أكثرها قبل آل عمران: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله إلا إن نصر الله قريب}(البقرة: ٢١٤)... ذلك أن النفس لا تزكو وتصلح حتى تمحص بالبلاء كالذهب الذي لا يخلص جيده من رديئه حتى يفتن في كير الامتحان إذ كانت النفس جاهلة ظالمة وهي منشأ كل شر يحصل للعبد فلا يحصل له شر إلا منها) الفوائد لابن القيم١/٢١٠ بتصرف.

- **الابتلاء سنّة ثابتة لا تتغير:**

سنّة الابتلاء والامتحان بالمصائب والمحن والشدائد والكروب والأحزان هي من سنن الله في خلقه الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل على مدار الزمان، قال الله تعالى: {آلم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنّا وهم لا يفتنون * ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين}(العنكبوت:١-٣).

فهذه هي سنّة الله في خلقه، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، ولن تجد لسنّة الله تحويلاً كما قال الله تعالى: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً}(فاطر: ٤٣)، فهذه سنته سبحانه وتعالى في خلقه التي لا تتبدل، يبتليهم ويختبرهم، ليعلم الصادق من الكاذب، وليعلم الراضي من الساخط، قال الله تعالى: {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً}(الأحزاب:٦٢).

- **الأنبياء أشدّ الناس بلاء:**

الابتلاء لم ينجُ منه حتى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، الذين هم أكرم الخلق على الله، وخير ولد آدم، وسادات البشر، ونبراس السالكين إلى مرضاة رب العالمين، بل كانوا هم أشد ابتلاءً من أتباعهم، وذلك لسمو مكانتهم وعلو درجتهم عند ربهم، ولأنهم هم القدوة والأسوة الحسنة لاتباعهم في صبرهم وفي رضاهم بما قدره الله عليهم من بلاء ومحن وشدائد وكروب ومصائب وأحزان. بل لا تكاد توجد لحظة في لحظات حياتهم إلا وفيها المثال والقدوة لأتباعهم، فهم الأسوة الحسنة والقدوة لكل المؤمنين. قال الله تعالى: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ}(الأنعام: ٩٠)، وقال تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله سنة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الأخر وذكر الله كثيراً}(الأحزاب: ٢١).، وقال سبحانه: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ}(الأنعام: ٣٤).

- **كلما زاد الإيمان.. زاد البلاء:**

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أشدّ النّاس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل". وفي رواية "إنّ من أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم".

وقد سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أشدّ النّاس بلاءً فقال: "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب (وفي رواية: قدر) دينه، فإن كان في دينه صُلْبًا؛ اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقةٌ؛ ابتلى على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد؛ حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة". والحديث في الترمذي، وابن ماجه، وغيرهما، وصححه الشيخ الالباني رحمه الله.

فأنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام هم أعظم النّاس إيماناً، وأكرم الخلق على الله، ومع ذلك فهم عليهم السلام كانوا أكثر النّاس عرضة للبلاء والمصائب والمحن. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أشدّ الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة التي يحويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء".

- **ماذا كان إبتلاء نوح عليه السلام؟**

وقد ابُتلي نبي الله نوحٌ عليه السلام بالاستهزاء به والسخرية منه والتهديد له ولأتباعه من المؤمنين.

قال الله تعالى: {قال الملأ من قومه} أي السادة الكبراء منهم: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ}(الأعراف: ٦٠).

(لّمَا بعث الله نوحاً عليه السلام -إلى قومه- دعاهم إلى إفراد عبادة الله وحده لا شريك له، وألا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته،

قال الله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}(النحل: ٣٦).

فذكر أنهم دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار، والسر والاجهار، بالترغيب تارة والترهيب أخرى، وكل هذا لم ينجح فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان. ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به، وتوعدُوهم بالرجم والإخراج، ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم) قصص الأنبياء.

وقال الله تعالى عن سخرية قومه به وهو يصنع الفلك الذي أمره بصناعته: {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ}(هود: ٣٨).

(أي يستهزئون به استبعاداً لوقوع ما توعدهم به. {قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ}(هود: ٣٨) أي نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم في استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم. {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ}(هود: ٣٩)) قصص الانبياء.

ووصل بهم الحد من عدواة نوح عليه السلام والكفر به والغلظة والشدة عليه والعناد له إلى تهديدهم له بالرجم. قال الله تعالى عن تهديد قوم نوح له {لئن لم تنته يا نوح لتكوننّ من المرجومين}(الشعراء: ١١٦).

(وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا، وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون أيضاً أن يكون جاءهم رسول.

كما روى البُخَاريّ عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يجيء نوح عليه السلام وأمته، فيقول الله عز وجل: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي ربّ. فيقول لأمته هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته، فتشهد أنّه قد بلغهم" وهو قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}(البقرة: ١٤٣).

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى: {فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمْ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}(العنكبوت: ١٤) أي ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم.

وكان كلما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته. وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه، وصاه فيما بينه وبينه: ألا يؤمن بنوح أبداً ما عاش، ودائماً ما بقى.

وكانت سجاياهم تأبى الإيمان وإتباع الحق، ولهذا قال: {وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً}(نوح: ٢٧)) قصص الأنبياء بتصرف.

- **وابُتلى إبراهيم الخليل عليه السلام فألقي في النار:**

قال الله تعالى: {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ}(الصافات: ٩٧). وقال تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ}(الأنبياء: ٦٨).

(وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن، فمكثوا مدة يجمعون له، حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم. ثم عمدوا إلى جوبة عظيمة، فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطربت وتأججت، والتهبت وعلا لها شررٌ لم ير مثله قط. ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له (هزن) وكان أول من صنع المجانيق، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين، لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك.

فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً، ثم ألقوه منه إلى النار، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل. كما روى البُخَاريّ عن ابن عبَّاس أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين قيل له: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ}(آل عمران: ١٧٣-١٧٤)) قصص الأنبياء.

- **كيف نجى الله خليله من النار؟**

ونجى الله نبيه وخليله من كيدهم ومكرهم بقوة إيمانه ويقينه وحسن ظنّه بربّه وحسن توكله عليه وثقته به، فقال الله للنار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، فلم تؤذه وخرج منها وهم ينظرون إليه، وجعلهم هم الأخسرين الأسفلين. قال الله تعالى: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيم َ* وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمْ الأَخْسَرِينَ}(الأنبياء: ٦٩-٧٠).

(فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا. قال الله تعالى: {وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمْ الأَخْسَرِينَ}(الأنبياء: ٧٠)، وفي الآية الأخرى: {الأَسْفَلِينَ}(الصافات: ٩٨) ففازوا بالخسارة والسفال، هذا في الدنيا وأمّا في الآخرة فإنَّ نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ، ولا يلقون تحية ولا سلاماً، بل هي كما قال تعالى: {إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً}(الفرقان: ٦٦)) قصص الأنبياء.

- **قصة الذبيح:**

ثم ابتلاه الله عز وجلّ ببلاء أخر ظاهر بين ألا وهو ذبح ابنه وفلذة كبده وقرة عينه إسماعيل عليهما من الله الصلاة والسلام وذلك بعد أن شب وترعرع. قال الله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ}(الصافات: ١٠٦). أي الاختبار الظاهر البين.

(يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنّه لّما هاجر من بلاد قومه سأل ربّه أن يهب له ولداً صالحاً، فبشّره الله تعالى بغلام حليم وهو إسماعيل عليه السلام، لأنه أول من ولد له على رأس ستٍ وثمانين سنة من عمر الخليل. وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل، لأنه أول ولده وبكره.

وقوله: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ}(الصافات: ١٠٢) أي شبَّ وصار يسعى في مصالحه كأبيه.

قال مجاهد: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ}(الصافات: ١٠٢) أي شبَّ وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل.

فلما كان هذا. رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا. وفي الحديث عن ابن عبَّاس مرفوعاً "رؤيا الأنبياء وحيٌ". قاله عبيد ابن عمير أيضاً.

وهذا اختبار من الله عز وجل لخليلهِ في أن يذبح هذا الوزير العزيز الذي جاءه على كبر، وقد طعن في السن بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد قفر، وواد ليس به حسيس ولا أنيس، ولا زرع ولا ضرع، فامتثل أمر الله في ذلك وتركها هناك، ثقة بالله وتوكلاً عليه، فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً، ورزقهما من حيث لا يحتسبان.

ثم لّما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربّه، وهو بكره ووحيده، الذي ليس له غيره، أجاب ربَّه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته.

ثم عرض ذلكَ على ولده ليكونَ أطيب لقلبهِ وأهون عليه، من أن يأخذه قَسْراً ويذبحه قهراً {قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى}(الصافات: ١٠٢).

فبادر الغلام الحليم، سر والده الخليل إبراهيم، فقال: {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ}(الصافات: ١٠٢). وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولربِّ العباد.

قال الله تعالى: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ}(الصافات: ١٠٤) قيل: أسلما، أي استسلما لأمر الله وعزما على ذلك. وقيل: وهذا من المقدم والمؤخر، والمعنى {تَلَّهُ لِلْجَبِينِ}(الصافات: ١٠٤)، أي ألقاه على وجهه. قيل: أراد أن يذبحه من قفاه، لئلا يشاهده في حال ذبحه، قاله ابن عبَّاس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك. وقيل: بل أضجعه كما تضجع الذبائح، وبقي طرف جبينه لاصقاً بالأرض. (وأسلما) أي سمى إبراهيم وكبر، وتشّهد الولد للموت. قال السُّدِّي وغيره: أَمَرَّ السّكين على حلْقِهِ فلم تقطع شيئاً، ويقال جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس والله أعلم.

فعند ذلك نُودي من الله عز وجل: {أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}(الصافات: ١٠٤-١٠٥). أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك. وبدّلك ولدك للقربان، كما سمحت ببدنك للنيران، وكما مالك مبذول للضيفان، ولهذا

قال تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ}(الصافات: ١٠٦).(أي الاختبار الظاهر البين) قصص الانبياء.

- **وابُتلى زكريا عليه السلام فنشر بالمنشار:**

قال ابن إسحاق -رحمه الله- (أراد بنو إسرائيل قتل زكريا ففر منهم، فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها، فالتأمت عليه، فأخذ الشيطان بهدبة ثوبه فرأوها، فوضعوا المنشار على الشجر فنشروها حتى قطعوه من وسطه في جوفها).

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه –وهو ممن اشتهر برواياته للإسرائيليات- هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قتل قتلاً؟

على روايتين:

الأولى: ما نقلناه قريباً من أنّه هرب من قومه فدخل شجرة فجاءوا فوضعوا المنشار عليها، فلمّا وصل المنشار إلى أضلاعه أنَّ فأوحى الله إليه لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومن عليها. فسكن أنينه حتى قطع باثنتين. وقد روى هذا في حديث مرفوع.

والثانية: أنّ الذي انصدعت له الشجرة هو شعيا، فأمّا زكريا فمات موتاً.

وأكثر ما يروى أنّه قتل حيث نشر بالمنشار كما ذكرنا، والله أعلم.

- **وذُبح يحيى بن زكريا عليهما السلام:**

يقول ابن إسحاق رحمه الله (وأما يحيى فقتل بسبب امرأة أراد ملكهم أن يتزوجها، فقال له يحيى: إنها لا تحل لك لكونها كانت بنت امرأته، فتوسلت إلى الملك حتى قتل يحيى).

وقال ابن كثير رحمه الله: (وذكروا في قتله أسباباً من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقي في نفسه منه فلمّا كان بينهما وبين الملك ما يحب منها إستوهبت منه دم يحيى، فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طست الى عندها فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها.

و قيل: بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها، فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك، فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طست) قصص الأنبياء.

وقُتِلَ غيرهما الكثير من الأنبياء عليهم السلام على أيدي بني إسرائيل، قال الله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ}(البقرة: ٨٧)، وقال تعالى: {لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ}(المائدة: ٧٠)، وقال تعالى: {قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}(البقرة: ٩١)، وقال عز وجل: {لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ}(آل عمران: ١٨١).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار) وقد عزا ابن كثير رحمه الله هذا الأثر في تفسيره لابن أبي حاتم.

- **وابُتليّ نبي الله يونس عليه السلام:**

فألقي في البحر، والتقمه الحوت، حتى استقر في بطنه، فاجْتمعت عليه ظلمات ثلاث، ظلمة بطن الحوت وظلمات البحر وظلمة الليل، وأصابه من الغم ما حكاه الله عنه في كتابه العزيز بقوله: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ، وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ، وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}(الصافات: ١٣٩-١٨٤)، وقال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}(الأنبياء: ٨٧-٨٨).

(قال أهل التفسير: بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل (نينوى) من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عز وجل، فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم، خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث... والمقصود أنّه عليه السلام لّما ذهب مغاضباً بسبب قومه ركب سفينة في البحر فلجَّت بهم، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون.

قالوا: فاشتوروا فيما بينهم، على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه.

فلمّا اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس، فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضاً، فشمّر ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه فأبوا عليه ذلك. ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضاً لما يريده الله به من الأمر العظيم.

وذلك أنّه لّما وقعت عليه القرعة ألقي في البحر، وبعث الله عز وجل حوتاً عظيماً من البحر الأخضر فالتقمه، وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحما، ولا يهشم له عظماً، فليس لك برزق فأخذه فطاف به البحار كلها. وقيل: إنّه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه. قالوا: ولّما استقر في جوف الحوت حسب أنّه قد مات، فحرّك جوارحه فتحركت، فإذا هو حي، فخر لله ساجداً، وقال: يا ربّ اتخذت لك مسجداً في موضع لم يعبدك أحد في مثله

وأنتَ بفضلٍ منكَ نجيّتَ يُونساً ** * وقدْ باتَ في أضعافِ حُوت لياليا

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجيّة، ويقتحم به لجج الموج الأُجاجيّ، فسمع تسبيح الحيتان للرحمن، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى، وربّ السماوات السبع والأرضين السبع، وما بينهما وما تحت الثرى. فعند ذلك وهنالك قال ما قال بلسان الحال والمقال كما أخبر عنه ذو العزة والجلال الذي يعلم السر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى، سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت حيث قال في كتابه المبين المنزل على رسوله الأمين وهو أصدق القائلين وربّ العالمين وإله المرسلين: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ} أي إلى أهله {مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ

مِنْ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}(الأنبياء: ٨٧-٨٨)) قصص الأنبياء.

وابتلي نبي الله أيوب عليه السلام وقد مرت معنا قصته.

- **سلسلة من الابتلاءات:**

وعانى نبي الله يوسف عليه السلام من ألم المحنة وضروب الابتلاءات الكثير، فقد تعرض لأصناف عديدة منها على مختلف مراحل حياته.

- **فامتحن بكيد إخوته له وإلقائهم له في البئر:**

مع فيه من وحشة وخوف وجوع، وابتلي ببعده عن والده وذويه {قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ}(يوسف: ١٠).

وكما قال سبحانه: {وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَـــذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}(يوسف: ١٩).

(يخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع في الجبّ أنّه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به فجاءت سيّارة، أي مسافرون... فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر، فلما أدلى أحدُهم دلوه، تعلَّق فيه يوسف) قصص الانبياء.

- **ثم ابُتلي بعدها بالرّق:**

{وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِين} (يوسف: ٢٠).

(ولما استشعر أخوة يوسف بأخذ السيارة له، لحقوهم وقالوا: هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم بثمن بخس، أي قليل نزر، وقيل: هو الزَّيف) قصص الانبياء.

ثم ابُتلي بعدها بمحنة أشدّ من محنة الرّق، وأعظم من فتنة الإلقاء في الجب ألا وهي

- **محنة المروادة من امرأة العزيز:**

{وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}(يوسف: ٢٣-٢٤).

(يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه، وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب، وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه، وتهيأت له، وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهي مع هذا كله امرأة الوزير.

وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء، إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء، فعصمه ربُّه عن الفحشاء، وحماه عن مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء السبعة الأتقياء، المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء، في قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه وشاب نشأ في عبادة الله ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله".

والذي يجب أن يُعتقد أن الله تعالى عصمه وبرّأه ونزّهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها. ولهذا قال تعالى: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}(يوسف: ٢٤)) قصص الانبياء.

ثم ابتلي بكيد امرأة العزيز له والتي انتهت به لمحنة أخرى.

- **محنة السجن:**

قال الله تعالى: {وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ} أي امتنع {وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ}(يوسف: ٣٢).

(ولما كان الأمر كذلك قال يوسف عليه السلام: {رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ}(يوسف: ٣٣)، وكما فَرَّ في السابق من امرأة العزيز واستبق الباب، ها هو الآن يفر إلى ربّه، باختياره السجن، لقد التجأ إلى الله جلّ وعلا وتضرع بين يديه، وقال: {رَبِّ} تسمع في هذه الكلمة أثر الأسى والاستعطاف وطلب الرحمة، ممن ربّاه بالنعم وامتنّ عليه بجزيل المنن {رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ}(يوسف: ٣٣). أي: أمِل إليهن) قصص الانبياء.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله: (وقد ابتلي يوسف بحسد إخوته له حيث قالوا: {ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إنّ أبانا لفي ضلال مبين}(يوسف: ٨) فحسدوهما على تفضيل الأب لهما ولهذا قال يعقوب ليوسف: {لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين}(يوسف: ٥). ثم إنهم ظلموه بتكلمهم في قتله وإلقائه في الجب وبيعه رقيقا لمن ذهب به إلى بلاد الكفر فصار مملوكا لقوم كفار ثم إن يوسف ابتلي بعد أن ظلم بمن يدعوه إلى الفاحشة ويراود عليها ويستعين عليه بمن يعينه على ذلك فاستعصم واختار السجن على الفاحشة وآثر عذاب الدنيا على سخط الله فكان مظلوما من جهة من أحبه لهواه وغرضه الفاسد. فهذه المحبة أحبته لهوى محبوبها شفاؤها وشفاؤه إن وافقها وأولئك المبغضون أبغضوه بغضة أوجبت أن يصير ملقى في الجب ثم أسيرا مملوكا بغير اختياره فأولئك أخرجوه من إطلاق الحرية إلى رق العبودية الباطلة بغير اختياره وهذه ألجأته إلى أن اختار أن يكون محبوسا مسجونا باختياره فكانت هذه أعظم في محنته وكان صبره هنا صبرا اختياريا اقترن به التقوى بخلاف صبره على ظلمهم فإن ذلك كان من باب المصائب التي من لم يصبر عليها صبر الكرام سلا سلو البهائم. والصبر الثاني أفضل الصبرين؛ ولهذا قال: {إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين}(يوسف: ٩٠)) نقلا عن رسالة في أمراض القلوب وشفاؤها لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(وقد قال بعض المفسرين رحمهم الله ما حاصله أنّ يوسف قد أخطأ هنا، عندما قال: {رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ} ولو أنّه قال: (ربِّ إنّ عافيتك أوسع لي)، لم يقع له

السجن، وهذا القول خطأ بيّن، فيوسف لم يطلب السجن ولم يتمنّه، بل إنّ قوله: {رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ}، متعلق بخيارين وضعا أمامه، فإذا لم يكن إلا السجن أو فعل الفاحشة فالسجن أحبّ إليّ، وأفعل التفضيل هنا لايقتضي حب المفضل، وإلاّ للزم القول بأن الفاحشة كانت حبيبة إليه غير أن السجن أحب، بل غايته أنّ السجن أفضل وأقرب إلى النفس من الوقوع في الفاحشة، وتلك منزلة رفيعة لايصل إليها كل إنسان، وهذا معنى بليغ ودقيق غفل عنه البعض.

- **المؤمن لايطلب البلاء:**

وهنا أنبه إلى أن الأصل أن يفر المرء بنفسه من الفتن، فالمؤمن لايطلب البلاء، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا"، وهذا ما صنعه يوسف عليه السلام، فيوسف لم يطلب السجن، ولكن المرأة وضعته في حصار إمّا أن يستجيب لها أو يسجن هكذا، قالت: {وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ}، فقال: {رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ}.

وهذا أمر معروف ومشاهد فقد تجد إنساناً يقول لآخر إمّا أن تفعل هذا أو أضربك، فيقول الضرب أحب إليّ، ولا يعني هذا أنّه يحب الضرب، فالذين قالوا: إنّ يوسف لّما قال: {رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ}، ابتلاه الله؛ لأنه طلب السجن، أخطؤوا وأساؤوا فهم الآية، ولم يتأملوا سياقها الدال على أنّ يوسف عليه السلام لا يريد السجن، فرحم الله أولئك المفسرين) نقلا عن مقال المحنة المنحة للشيخ ناصر العمر.

ثم أُدخل يوسف عليه السلام الى السجن، {ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ}(يوسف: ٣٥).

(يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم، أي ظهر لهم من الرأي، بعد ما علموا براءة يوسف، أن يسجنوه إلى وقت، ليكون ذلك أقل لكلام الناس، في تلك القضية، وأخمد لأمرها، وليظهروا أنّه راودها عن نفسها، فسجن بسببها، فسجنوه ظلماً وعدواناً) قصص الانبياء.

فمكث في السجن عليه السلام بضع سنين وهو العفيف الطاهر، قال الله تعالى: {فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ}(يوسف: ٤٢).

وابُتلي أبوه نبيُّ الله يعقوب عليه السلام بفقده وهو أحبّ أبنائه إليه، حتى كادت تتفتتُ كبده حزناً عليه، وابيضت عيناه من البكاء والحزن الشديد عليه. قال الله: {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}(يوسف: ٨٤).

- **وابُتلي نبي الله موسى عليه السلام:**

فخرج من بلدته مطارداً شريداً، قال الله تعالى {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}(القصص: ٢٠-٢١).

(يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفاً يترقب أي يتلفت خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون وهو لا يدري أين يتوجه، ولا إلى أين يذهب، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها) قصص الانبياء.

- **أعظم البلاء .. لأعظم الرجال عليه الصلاة والسلام:**

وقد نال البلاء من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مثل ما نال إخوانه من الانبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام بل أشد وأكثر قال الله تعالى: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}(الذاريات: ٥٢)، وقال تعالى: {مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ}(فصلت: ٤٣)، وقال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}(الأنعام: ١٠).

وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وأحمد وغيرهما عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ " أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا

أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً قَالَ اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ قَالَ وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ قَالَ وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ وَذَكَرَ الْبُخْلَ أَوْ الْكَذِبَ وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ".

- **متى بدأ البلاء ؟**

وكان بداية نزول البلاء به صلى الله عليه وسلم مع بداية نزول الوحي عليه، وذلك إشعار من الله عز وجل له بأن هذا الأمر الذي أكرمه به يحتاج إلى الصبر والمصابرة، والجد والجهد والمثابرة، فهو قول ثقيل ألقاه الله عليه، ومهمة جليلة كلفه الله بها، يخالف فيها أهل الأرض جميعاً عربهم وعجمهم أنسهم وجنهم، وهو قلب لأنماط حياة ألفها أصحابها وتوارثوها جيلاً بعد جيل وقرناً إثر قرن، قلبٌ لها في جميع شُعبها وتفاريعها سواء ذلك في العقائد، والسلوك، والمعاملات، والعادات، والأعراف، والعبادات ، والعلاقات، وغيرها، وكفى بذلك عبئاً وتكليفاً، فمهمة دعوة الخلق وإرشادهم وهدايتهم للحق وموالاتهم ومعاداتهم لأجله ليست بالأمر اليسير، ولهذا كلما ضاق صلى الله عليه وسلم من إعراض قومه ذرعاً واشتد عليه توليهم وكبر عليه استكبارهم صبَّره الله سبحانه وهوَّن عليه الأمر وخفف عنه من وطأته وأعلمه أنما عليه البلاغ وما وراء ذلك فهو إلى الله سبحانه وتعالى فمن شاء هداه وشرح صدره للحق، ومن شاء أضله وجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعد في السماء... {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}(فاطر:

٨)، {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً}(الكهف: ٦)، {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}(الشعراء: ٣)، لا سيما وقد بُعث صلى الله عليه وسلم في زمن هو أشد ما يكون بُعداً عن الحق وتنكراً لسبيله وجهلاً بحقائقه، وقد استحكمت العداوات وأُججت نيران الحروب على حقير الأمور وجليلها، فالقلوب منافرة، والنفوس متنافسة، والحَكَم هو السيف والفيصل للقوة، كما جاء في الحديث: "وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب..الحديث" رواه مسلم ومر قريبا.

قال ابن إسحاق رحمه الله: (ثم تتامّ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مصدق بما جاء منه، وقد قبله بقبوله، وتحمل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم.

- **وللنبوة أثقال:**

ومؤونة لا يحملها ولا يستضلع بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل -بعون الله وتوفيقه- لما يلقون من الناس، وما يُردّ عليهم مما جاؤوا به عن الله عز وجل.

فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما أمر الله به على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى).

وقد أُوذي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الله قبل أن يؤذى أحد من أصحابه وتعرض للجوع وشدته.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، وأُخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال ما يأكله ذو كبد؛ إلا ما يواري إبط بلال" أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح)، قال المناوي رحمه الله في بيان معنى الحديث: "وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد" أي حيوان، أي طعام سواء كان ما يأكل الدواب أو الإنسان، إلا شيء يواريه إبط بلال، أي يستره يعني: كان في وقت

الضيق رفيقي، وما كان لنا من الطعام إلا شيء قليل بقدر ما يأخذه بلال تحت إبطه و لم يكن لنا ظرف نضع فيه الطعام فيه". (فيض القدير٥/٢٧٩).

- **وتعرض للسب والشتم:**

على رؤوس الخلائق وفي المجامع، كما قال عز وجل: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً}(الفرقان: ٤١)، {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ}(الأنبياء: ٣٦)، ومن ذلك ما أخرجه أحمد والشيخان عن ابن عباس قال: (لما أنزل الله: "وأنذر عشيرتك الأقربين" أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا، فصعد عليه، ثم نادى: (يا صباحاه!).

فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه؛ وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا بني عبد المطلب! يا بني فهر! يا بني لؤي! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟". قالوا: نعم. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد".

فقال أبو لهب -لعنه الله-: تباً لك سائر اليوم! أما دعوتنا إلا لهذا؟! وأنزل الله عز وجل: {تبت يدا أبي لهب وتب}(المسد: ١).

- **واتهم بالكذب:**

قال الله تعالى: {وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}(ص: ٤).

روى الإمام أحمد، والبيهقي وغيرهما عن ربيعة بن عباد من بني الديل —وكان جاهليّاً فأسلم— قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية في سوق (ذي المجاز) وهو يقول: "يا أيها الناس! قولوا: (لا إله إلا الله) تفلحوا".

والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيءُ الوجه أحول، ذو غديرتين يقول: إنّه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه؟ فقالوا: هذا عمه أبو لهب.

- **ورُمي بالجنون:**

فكانوا ينادونه بالجنون قال الله تعالى: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}(الذاريات: ٥٢)، {وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}(الحجر: ٦)، {وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ}(القلم: ٥١).

فلما أغرقوا في التهم، وبالغوا في التنفير، ونقبوا عن صغير القبائح وكبيرها، وقلوبهم محشوة بالحقد المتأصل، والحسد المشتعل، وإصرار الإعراض، وتصلب الإباء، ردَّ الله عليهم فريتهم وفنَّد مزاعمهم فقال: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ}(الطور: ٢٩)، وقال سبحانه: {مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}(القلم: ٢)، وكلما استحدثوا فرية وأطلقوا نعتاً علِموا أن الحقيقة خلاف ما يدعون، وأن تمويههم مما يُستحيى منه ومع ذلك فلم يجدوا بداً من التمادي في هذا السلوك الردي فهو قصارى ما يمكن أن يُشوشوا به على الحق وداعيه، فتفتقت قلوبهم المريضة وأنجبت عقولهم الحبلى بتوأمي الكفر والجهل مسخاً جديداً فرموه صلى الله عليه وسلم بالسحر والكهانة -وأول من يعلم سفالة الكِذبة مَن أحدثها- كما قال الله تعالى: {وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}(ص: ٤).

ولا أدل على أن نُصرة الباطل المجردة هي التي تدفع هؤلاء المتهافتين من هذه القصة التي تحكي لنا بدقة أن البحث عن الحق لم يكن همهم ولا همتهم، وأن طلب الحقيقة ليس مما يعنيهم، وأن العناد المسبق هو قانونهم الذي يستندون إليه ويسيرون عليه، كما قال الله تعالى: {وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}(الأعراف: ١٣٢)، قال أيضا: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}(سبأ: ٣١)، وقال سبحانه: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}(الأنعام: ٢٥).

- **القرآن يتحدى العرب:**

فقد روى إسحاق بن راهويه بسنده عن ابن عباس: أنّ الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم! إنّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لم؟ قال: ليعطوكه؛ فإنّك أتيت محمداً لتعرّض ما قِبَلَه.

قال: قد علمت قريش أنّي من أكثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنّك منكر له.

قال: وماذا أقول؟ فوالله؛ ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله؛ ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله؛ إنّ لقوله الذي يقوله حلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنّه ليعلو ولا يُعلى، وإنّه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني حتى أفكر فيه.

فلما فكر قال: إنّ هذا إلا سحر يؤثر، يأثره عن غيره. فنزلت: {ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبنين شهوداً}(المدثر: ١١-١٣) الآيات، هكذا رواه البيهقي عن الحاكم عن إسحاق.

وروي أنّه لّما قرب موسم الحج، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم، فرأت أنّه لابد من كلمة يقولونها للعرب، في شأن محمد صلى الله عليه وسلم حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوس العرب، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة، فقال لهم الوليد : أجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضًا، قالوا: فأنت فقل، وأقم لنا رأيًا نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع.

قالوا: نقول: كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزَمْزَمَة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، ما هو بخَنْقِه ولا تَخَالُجِه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رَجَزَه وهَزَجَه وقَرِيضَه ومَقْبُوضه ومَبْسُوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنَفْثِهم ولا عقْدِهم. قالوا: فما نقول؟ قال: والله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أصله لعَذَق، وإنّ فَرْعَه لجَنَاة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنّه باطل، وإنّ أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر. جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك.

- **معركة البلاء:**

ومع ذلك فلم توهنه صلى الله عليه وسلم اجتماعاتهم ولا كلماتهم التي يقذفونه بها، بل صابر وصبر وصدع بالحق وبلغه كاملاً لا ثلم فيه ولا مداهنة عليه، واستمرت معركة البلاء متعددة الوجوه ومتقلبة الأطوار فاستهزؤا واستخفوا به وهم الأحقرون الأذلون ولكن عظَّمت نفوسهم انتفاشة الباطل ونفثات الشياطين وانطامس البصائر فلم يضروه –صلى الله عليه وسلم شيئاً- ولكن أنفسهم يُهلكون، فكانوا يستهزؤن به ويسخرون ويضحكون منه ومن أصحابه، وكانوا يشتمونه ويبزقون في وجهه الكريم، وهي سنة اقتفوا فيها أثار السفلة من إمم العناد السابقة فسبحان الله: {أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ}(الذاريات: ٥٣).

قال الله عز وجل: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ}. وقال تعالى: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً}الفرقان٤١، وقال سبحانه: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ}الأنبياء٣٦، وقال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ}.

أخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في (الدلائل) بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ أبا معيط كان يجلس مع النبي صلى الله عليه وسلم بـــ(مكة) لا يؤذيه، وكان رجلاً حليماً، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه، وكان لأبي معيط خليل غائب عنه بالشام، فقالت قريش: صبأ أبو معيط.

وقدم خليله من الشام ليلاً، فقال لامرأته: ما فعل محمد مما كان عليه؟ فقالت: أشدّ مما كان أمراً. فقال: ما فعل خليلي أبو معيط؟ فقالت: صبأ.

فبات بليلة سوء، فلما أصبح أتاه أبو معيط فحياه، فلم يرد عليه التحية. فقال: مالك. لا ترد علي تحيتي؟ فقال: كيف أرد عليك تحيتك وقد صبوت؟!

قال: أوقد فعلتها قريش؟! قال: نعم.

قال: فما يبرئ صدورهم إن أنا فعلت؟

قال: تأتيه في مجلسه، وتبزق في وجهه، وتشمته بأخبث ما تعلمه من الشتم!.

ففعل، فلم يزد النبي صلى الله عليه وسلم أن مسح وجهه من البزاق، ثم التفت إليه فقال: " إن وجدتك خارجاً من جبال (مكة) أضرب عنقك صبراً ".

فلما كان يوم بدر، وخرج أصحابه، أبى أن يخرج.

فقال له أصحابه: أخرج معنا.

قال: قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجاً من جبال (مكة) أن يضرب عنقي صبراً.

فقالوا: لك جمل أحمر لا يُدرك، فلو كانت الهزيمة طرت عليه.

فخرج معهم، فلمّا هزم الله المشركين، وَحَلَ به جمله في جدد من الأرض، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم أسيرا في سبعين من قريش، وقدم إليه أبو معيط فقال: تقتلني من بين هؤلاء؟ قال: " نعم. بما بزقت في وجهي ".

- **وكان يوضع الشوك في طريقه وأمام بيته صلى الله عليه وسلم:**

كانت تضعه أم جميل زوجة أبي لهب وقد كانا -لعنهما الله- من أشد الناس عداوة وبغضاً للنبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك توعدهم الله عز وجلّ بأشدّ العذاب يوم القيامة، وجعل قصتهم تُحكى على مدار الزمان في سورة من سور القرآن. قال الله تعالى

{تبت يد أبي لهبٍ وتبّ * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى ناراً ذات لهب * وامرأته حمّالة الحطب * في جيدها حبل من مسد}.

- **ووضع سَلَى الجزور على رأسه وهو ساجد يصلي:**

حول الكعبة وهم حوله يضحكون، روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد.

فانبعث أشقى القوم وهو عقبة بن أبي معيط فجاء به فنظر، حتى إذا سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر، لا أغني شيئاً، لو كانت لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعض – أي يميل بعضهم على بعض من شدّة الضحك – ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساجد، لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة – رضي الله عنها – فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه.

- **واعتدوا عليه بالضرب في أكثر من مرة:**

ففي صحيح مسلم وغيره أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: " قال أبو جهل لبعض أصحابه من كفار قريش: يُعفر محمد وجهه بين أظهركم؟

فقيل: نعم.

فقال: واللات والعزى، لئن رأيته لأطأن على رقبته ولأعفرنّ وجهه.

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يُصلي، زعم ليطأ رقبته، فما فاجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقالوا: مالك يا أبا الحكم؟

قال: إنّ بيني وبينه لخندقاً من نار وهؤلاء أجنحة.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لو دنا منّي لاختطفته الملائكة عضواً عضواً ".

وفي رواية " لو فعل ذلك لأخذته الملائكة عياناً ".

وروى الامام أحمد وابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو جالس حزيناً؛ قد خُضب بالدماء؛ ضربه بعض أهل (مكة)، قال: فقال له: ما لك؟

قال: فقال له: " فعل بي هؤلاء وفعلوا ".

قال: فقال له جبريل عليه السلام: أتحب أن أريك آية؟

قال: " نعم ".

قال: فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: ادع بتلك الشجرة. فدعاها، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع. فأمرها فرجعت إلى مكانها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " حسبي ".

- **ورُمي بالحجارة حتى أُدميت قدماه الشريفتان الطاهرتان:**

وذلك لما اشتدّ على الرسول صلى الله عليه وسلم كيد كفار قريش وأذاهم له بعد وفاة عمه وزوجه خديجة اللذين كانا الحاميين له والمدافعين عنه، توجه إلى الطائف لعله يجد في ثقيف حسن الإصغاء لدعوته والانتصار لها، ولكنهم ردوه ردا غير جميل، وأغروا به صبيانهم فقذفوه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الطاهرتين وكان ذلك أشدّ يوم مر عليه صلى الله عليه وسلم.

قالت عائشة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم أشدّ من يوم أحد؟

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: لقد لقيت من قومك، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبدالليل بن عبدكلال، فلم يجبن إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت، فإذا فيها جبريل.

فقال جبريل: إنّ الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمر بما شئت فيهم.

فسلم عليّ ملك الجبال وقال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (جبلان بمكة).

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبـــد الله وحده، ولا يشرك به شيئاً.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه كأنّي أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " متفق عليه.

- **وحاولوا قتله مرارا وتكرارا:**

قال أبو جهل : يا معشر قريش، إن محمدًا قد أبي إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبدًا، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجرًا كما وصف، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره، وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يغدو، فقام يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا ممتقعًا لونه، مرعوبًا قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لى دونه فَحْلٌ من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هَامَتِه، ولا مثل قَصَرَتِه ولا أنيابه لفحل قط، فَهَمَّ بي أن يأكلنى . قال ابن إسحاق: فذكر لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه ".

- **كيف نستفيد من إبتلاءات الآخرين؟**

ولربما تمر مثل هذه القصص التي ترسخ مفهوم الابتلاء المتواصل لحاملي العقيدة الحقة مرورا عابراً من غير أن يتعمق الشعور بمدى مرارتها وقوة وقعها على النفوس وذلك لأنها – وعند قراءتها – لا تزيد عن كونها قصة نسردها بعيدة عن ملامسة شغاف القلوب المؤثرة وبهذا ربما تفقد تأثيراتها.

فضع نفسك أمام مشهد تراه بعينيك لا يغيب عنك منه شيء وأنت ترقب عصابة تائهة ضائعة ساقطة قد تجردت من كل قيمة أخلاقية أو ضوابط سلوكية وهي متحلقة على الهزوء تقهقه تارة وتتصايح أخرى ساخرة بالمارة من أهل الصلاح والاستقامة والأمانة، فكيف إذا كان أولئك الصالحون المصلحون هم من أولي القدر وعلو المنزلة والشرف وكيف إذا كان نبياً من الأنبياء، وكيف أيضاً حينما يكون ذلك سيد الخلق وإمام المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال الله سبحانه فيه: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً *لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً}الفتح٨-٩

- **لقد جئتكم بالذبح!**

روى البيهقي عن الحاكم بسنده عن ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عروة عن أبيه عروة قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهره من عداوته؟

فقال: لقد رأيتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قطّ؛ سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، وصرنا منه على أمر عظيم.

أو كما قالوا.

قال: فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت، فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمضى، فلمّا مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفتها في وجهه، فمضى، فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فقال: " أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده؛ لقد جئتكم بالذبح ".

فأخذت القومَ كلمته، حتى ما منهم من رجل إلا وكأنّما على رأسه طائر وقع، حتى إنّ أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنّه ليقول: انصرف أبا القاسم! راشداً، فوالله؛ ما كنت جهولاً. فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه.

فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول: كذا وكذا؟! لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نعم؛ أنا الذي أقول ذلك ".

ولقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه، وقام أبو بكر يبكي دونه ويقول: {أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله}؟! ثم انصرفوا عنه.

فإنّ ذلك لأكثرُ ما رأيت قريشاً بلغت منه قطّ.

- **قوة وثبات وعزم وإصرار:**

(والمقصود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استمر يدعو إلى الله تعالى ليلاً نهاراً، وسراً وجهراً، لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يرده عن ذلك راد، ولا يصده عن ذلك صاد، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، يدعو من لقيه من حر وعبد، وضعيف وقوي، وغني وفقير، جميع الخلق في ذلك عنده شرع سواء.

وتسلط عليه وعلى من اتبعه من أحاد الناس من ضعفائهم الأشداء الأقوياء من مشركي قريش بالأذية القولية والفعلية) السيرة النبوية لابن كثير.

- **وتآمروا عليه في دار الندوة بالسجن أوالطرد أوالقتل ثم اتفقوا على قتله:**

قال الله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}الأنفال٣٠ وأُخرِج من بلدته التي نشأ وترعرع فيها، كما أُخرِج قبله العديد من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام من ديارهم، ولم ينقطع عنه

البلاء – صلى الله عليه وسلم – بتركه لتلك الدار التي عتى أهلها عتوا كبيراً وجاهروا له بالعداوة والبغضاء وواجهوه بالمحاربة والإيذاء بل استمر البلاء به صلى الله عليه وسلم حتى بعد الهجرة إلى المدينة، فقد حاول بعض الكفار من قريش قتله بالمدينة بعد غزوة بدر ذلك عندما جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحِجْر بعد وقعة بدر بيسير ـــ وكان عمير من شياطين قريش ممن كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم بمكة ـــ وكان ابنه وهب بن عمير في أساري بدر، فذكر أصحاب القَلِيب ومصابهم، فقال صفوان : والله إنْ في العيش بعدهم خير .

قال له عمير : صدقت والله، أما والله لولا دَيْن علي ليس له عندي قضاء، وعيال أخشي عليهم الضَّيْعةَ بعدي لركبتُ إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قِبَلَهُمْ عِلَّة، ابني أسير في أيديهم. فاغتنمها صفوان وقال: عليَّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى، أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير : فاكتم عني شأني وشأنك، قال: أفعل. ثم أمر عمير بسيفه فشُحِذَ له وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب ـــ وهو في نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمهم الله به يوم بدر ـــ فقال عمر: هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا لشر ، ثم دخل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال : يا نبي الله، هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه، قال : " فأدخله علي "، فأقبل إلى عمير فلَبَّبَهُ بحَمَالة سيفه، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنّه غير مأمون، ثم دخل به، فلمّا رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـــ وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه ـــ قال: " أرسله يا عمر، ادن يا عمير " ، فدنا وقال : أنْعِمُوا صباحاً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة " . ثم قال : " ما جاء بك يا عمير "؟

قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه ، قال : " فما بال السيف في عنقك "؟

قال : قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال: " اصدقني، ما الذي جئت له"؟ قال: ما جئت إلا لذلك.

قال : " بل قعدتَ أنت وصفوان بن أمية في الحِجْر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت : لولا دين عليَّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله حائل بينك وبين ذلك ".

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما يترل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم تشهد شهادة الحق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فقهوا أخاكم في دينه، وأقرائوه القرآن، وأطلقوا له أسيره ".

وأما صفوان فكان يقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان يسأل الركبان عن عمير، حتى أخبره راكب عن إسلامه فحلف صفوان ألا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدا. ورجع عمير إلى مكة وأقام بها يدعو إلى الإسلام، فأسلم على يديه ناس كثير.

- **وقد حاول الكفار غزو المدينة أكثر من مرة لقتل النبي صلى الله عليه وسلم:**

ففي غزوة أحد خرج لهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ودارت رحى معركة حامية أصيب فيها النبي صلى الله عليه وسلم عدّة أصابات. وفي الصحيحين (جُرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه).

(وكانت أحرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين، ولم يتوان المشركون في انتهاز تلك الفرصة، فقد ركزوا حملتهم على النبي صلى الله عليه وسلم، وطمعوا في القضاء عليه، رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فوقع لشقه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكُلِمَتْ شفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهري فَشَجَّه في جبهته، وجاء فارس عنيد هو عبد الله بن قَمِئَة، فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة شكا لأجلها أكثر من شهر إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين، ثم ضرب على وجنته صلى الله عليه وسلم ضربة أخري عنيفة كالأولي

حتى دخلت حلقتان من حلق المِغْفَر في وجْنَتِه، وقال : خذها وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمسح الدم عن وجهة : " أقمأك الله ") الرحيق المختوم.

وفي الصحيحين أيضا قال النبي صلى الله عليه وسلم: [اشتدّ غضب الله على قوم فعلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو حينئذ يشير الى رباعيته – واشتدّ غضب الله على رجل قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله].

وفي صحيح البخاري كان النبي صلى الله عليه وسلم يسلت الدم عن وجهه وهو يقول: [كيف يُفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله]

والقرآن يترل: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}آل عمران١٢٨

- **معالم في الطريق:**

وإن حادثة أحد وما وقع فيها من الجراحات والمصائب والمحن التي لحقت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام لترسم الطريق بمعالمه الواضحة التي سيسلكها المؤمن في رحلته إلى الدار الآخرة، وأن من يحسب أن نصرة دين الله علما وعملا ودعوة هي عيشة هانئة ورغد طيب وراحة رخية هو من أبعد الناس عن فهم حقيقة دعوة الإسلام واستيعاب سبيل المرسلين وهو ما لا يليق بداعية إلى الهدى أن يغفل عنه: [وفي إصابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجراح يوم أحد عزاءٌ للدعاة فيما ينالهم في سبيل الله من أذى في أجسامهم، أو اضطهاد لحرياهم بالسجن والاعتقال، أو قضاءٍ على حياهم بالاعدام والاغتيال، وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: {ألم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون* ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين}] سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لمصطفى السباعي.

- **ماذا كان في يوم الأحزاب؟**

وفي يوم الأحزاب اشتدّ عليه الحصار هو أصحابه وزلزلوا زلزالا شديدا. يقول الله تعالى يصف حالهم: {إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ

الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا*هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً} الأحزاب١٠-١١، وأصابهم فيها الجهد والجوع والخوف حتى ربط النبي صلى الله عليه وسلم حجرين على بطنه من الجوع.

- **متى طعن في عرضه؟**

وبعد رجوعه من غزوة بني المصطلق طُعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في عِرْضِ زوجته الشريفة الطاهرة المطهرة عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها وأرضاها، وكل هذا يدل على أن المصطفى صلى الله عليه وسلم قد تقلب في صنوف البلاءات وتنوعت عليه ضروب المحن ولاصقته أنواع الشدائد مصداقاً لما أخبر به صلى الله عليه وسلم عن ربه: [إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك]

حتى أن البلاء قد استمر به إلى آخر لحظات حياته ومفارقته للدنيا، فما يزال البلاء يتضاعف عليه حتى عند قبض روحه صلى الله عليه وسلم، لتسمو مكانته، وترتفع درجته، وتعلو منزلته، ويتكامل فضله، فقد كان يوعك وعكاً شديداً.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: [دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فمسسته، فقلت يا رسول الله إنك توعك وعكا شديدا فقال أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم قلت: ذلك بأن لك أجرين؟ قال: أجل ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها]رواه البخاري ومسلم.

- **هيأ نفسك للبلاء:**

فهذه الابتلاءات والمحن لم ينجُ منها كما ترى حتى أنبياء الله، وأكرم الخلق على الله، فما بالنا نحن كل عزمنا وضعفت همنا واستدرجتنا الأماني فلا نصبر على البلاء الذي هو أقل مما أصاب من كان من قبلنا من الأنبياء والصالحين.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: [يا مخنث العزم أين أنت والطريق طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمي في النار الخليل، وأضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى،

وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسي، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد صلى الله عليه وسلم](الفوائد١/٤٢)

- **سنة الله في أتباع الرسل:**

وإذا كان التمحيص والابتلاء والشدائد والزلزلة هي سنة الله سبحانه في أنبيائه ورسله، فإن أتباعهم ليسوا بمعزل عن هذه السنة الربانية المطردة، والقرآن مليء بالآيات البينات التي تؤكد هذه الحقيقة وتجليها أيما تجلية ليكون المؤمن على بينة من ذلك من أول ما يضع قدمه في الطريق المستقيم، فتتهيأ لذلك نفسه، ويستعد قلبه، ولا يصطدم عند أدنى محنة فينقلب على عقبيه كمن يعبد الله على حرف نسأل الله العافية. قال الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}الحج١١، وقال عز وجل: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ}العنكبوت١٠

أما الآيات التي تبين أن البلاء والفتنة والتمحيص أمرٌ لا انفكاك عنه للمؤمن فكثيرة منها قوله تعالى: {ألم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون* ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين}، وقال تعالى: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولّما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب}.

- **الناس صنفان:**

[فإن الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنا وإما ألا يقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر، فمن قال آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه، والفتنة الابتلاء والاختبار ليتبين الصادق من الكاذب.... فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتلي بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم ولم يطعهم عوقب في الدنيا والآخرة فحصل له ما يؤلمه، وكان هذا المؤلم له أعظم ألما وأدوم من ألم اتباعهم، فلا بد من

حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ثم يصير إلى الألم الدائم، وسئل الشافعي رحمه الله: أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟ فقال لا يمكن حتى يبتلى، والله تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول، فأعقلهم من باع ألما مستمرا عظيما بألم منقطع يسير، وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر](زاد المعاد٣/١٤-١٥)

وقد امتحن الله أتباع الأنبياء عليهم السلام بأنواع من المحن، فأُخْرِجَ كثيرٌ منهم من أوطانهم، قال الله تعالى: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ}. وأُخرج من آمن من قوم لوط عليه السلام من قريتهم، قال الله تعالى: {وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون}.

وابُتلي المؤمنون من اتباع موسى عليه السلام، قال الله تعالى: {وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك * قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون}، وقال تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ}، وقال تعالى: {وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم}.

- **كيف صبروا على الإبتلاء؟**

ولّما قذف الله الإيمان في قلوب السحرة من قوم موسى عندما رءوا الآيات الباهرات على صدقه عليه السلام، أعلنوها بكل صراحة وقوة وجرأة في وجه الطاغية فرعون المتجبر المستكبر وبدون تقية ولا مدارة: ءامنا برب هارون وموسى، فهددهم فرعون بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف إن هم أصروا على اتباعهم لموسى وإيمانهم به، وتوعدهم بالصلب على جذوع النخل إن لم يتركوا دين موسى، فلم يزدهم كل ذلك إلا اصرارا

على اتباع الحق ولو قطعوا تقطيعا، وقالوا له في صدق المؤمن وعزم المستيقن: اقض ما انت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، فكانوا في أول النهار سحرة وفي أخر النهار شهداء بررة.

قال الله تعالى: {وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}. وقال تعالى: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ}. وقال تعالى: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلا * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى}

(وقوله: {لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ} يعني يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه {ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} أي ليجعلنهم مثلة ونكالاً لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل ملته ولهذا قال: {وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} أي على جذوع النخل لأنّها أعلى وأشهر {وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى} يعني في الدنيا. {قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ} أي لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات {وَالَّذِي فَطَرَنَا} قيل معطوف. وقيل قسم {فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ}

أي فافعل ما قدرت عليه {إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} أي إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} أي وثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب {وَأَبْقَى}، أي وأدوم من هذه الدار الفانية وفي الآية الأخرى {قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا} أي ما اجترمناه من المآثم والمحارم {أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} أي من القبط بموسى وهارون عليهما السلام.

وقالوا له أيضاً: {وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا} أي ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا وأتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً} أي ثبتنا على ما أبتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد والسلطان الشديد بل الشيطان المريد {وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}.

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم رضي الله عنهم.

قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرة فصاروا من آخره شهداء بررة!

ويؤيد هذا قولهم {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}) قصص الانبياء.

- **قصة أصحاب أخدود:**

وابُتلي المؤمنون من أصحاب الأخدود لّما آمنوا بالله ربِّ الغلام، فشُقت لهم الأرض أخاديد، ومُلئت حطباً، وأُشعلت فيها النيران، ثم قُذفوا فيها وهم أحياء ينظرون، قال الله تعالى:{قُتل أصحاب الأخدود * النّار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد}.

(وقوله تعالى " قتل أصحاب الأخدود "، أي لعن أصحاب الأخدود، وجمعه أخاديد وهي الحفر في الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عز وجل فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم فحفروا لهم في الأرض أخدوداً وأججوا فيه ناراً وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم – أي أن يرجعوا عن

دينهم – فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها ولهذا قال تعالى {قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود *وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود}، أي مشاهدون لما يُفعل بأولئك المؤمنين. قال الله تعالى {وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد}، أي وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يُضام من لاذ بجنابه المنيع، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به فهو العزيز الحميد وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس](تفسير ابن كثير٨/٣٦٦).

- **قصة الغلام مع الملك:**

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد وغيرهما في آخر قصة الغلام مع الملك [فقال الناس: آمنا بربّ الغلام. فقيل للملك: أرأيت ماكنت تحذر؟ فقد والله نزل بك قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك، فخُدت فيها الأخاديد وأُضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون. فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار فقال الصبي: اصبري يا أماه فإنّك على الحق].

يقول الإمام القرطبي رحمه الله [أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية ما كان يلقاه من وحّد قبلهم من الشدائد، يؤنسهم بذلك، وذكر لهم النبي صلى الله عليه وسلم قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها ليتأسوا بمثل هذا الغلام وتصلبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظم صبره، وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار. وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله ورسخ الإيمان في قلوبهم، صبروا على الطرح في النار، ولم يرجعوا في دينهم] (الجامع لأحكام القرآن١٩/٢٩٣).

- **الصحابة الكرام ينالهم أشدّ البلاء:**

لقد نال الصحابة الكرام من البلاء مثل ما نال أتباع الرسل من قبلهم، وكيف لا وهو أفضل القرون وأجل الأمم إيماناً وصدقاً ويقيناً وعلماً وجهاداً، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: [خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم] متفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه، وقد وضع النبي صلى الله عليه وسلم قاعدة عامة يدركها كل مؤمن ليوطد عليها نفسه فكانوا ضوان الله عليهم أولى الناس باستيعابها وأحقهم بفقهها؛ تلك القاعدة التي يقول فيها عليه الصلاة والسلام: [أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة]رواه أحمد والبخاري وغيرهما..

ولما اشتد البلاء بالصحابة رضي الله عنهم وطال عناؤهم من تنكيل صناديد قريش وأفظاظهم، وبدأت نفوسهم تتململ لثقل وقعها، صبرهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقوى عزائمهم بالتأمل فيمن كان قبلهم من أهل المحن والشدائد، وأمّلهم بالنصر والفتح والأمان بكلمات لا تستقبلها إلا نفوس صُقلت مرءاة الإيمان فيها فأصبحت تستشرف المستقبل وتترقب بزغ نورِ فرجٍ بيقين لا يكدره ريب فعن خباب بن الأرت رضي الله عنه: [شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: يا رسول الله ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا، فقال: كان الرجل قبلكم يؤخذ فيحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين ما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون]أخرجه أحمد والبخاري وغيرهما.

قال القرطبي رحمه الله [فوصفه صلى الله عليه وسلم هذا عن الأمم السالفة على جهة المدح لهم، والصبر على المكروه في ذات الله، وأنهم لم يكفروا في الظاهر ويبطنوا الإيمان ليدفعوا العذاب عن أنفسهم، وهذا حجّة من آثر الضرب والقتل والهوان على الرخصة والمقام بدار الجنان] (الجامع لأحكام القرآن١٠/١٨٨).

- **كيف كانوا يعذبون ؟**

وقد نزل البلاء بالصحابة الكرام رضوان الله عليهم مع أول أيام إسلامهم. فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدرع الحديد المحماة، وصهروهم في الشمس شمس مكة، فما منهم من أحد إلا وقد وآتاهم ما أرادوا؛

- **إلا بلالاً رضي الله عنه..**

فإنه هانت عليه نفسه في الله تعالى، وهان على قومه، فعذب أشدّ العذاب فقد (كان أمية يضع في عنقه حبلًا، ثم يسلمه إلى الصبيان، يطوفون به في جبال مكة، ويجرونه حتى كان الحبل يؤثر في عنقه، وهو يقول : أحَدٌ أحَدٌ، وكان أمية يــــشده شـــدًا ثم يضربه بالعصا، ويلجئه إلى الجلوس في حر الشمس، كما كان يكرهه على الجوع. وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في الرمضاء في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول : لا والله لا تـــزال هكـــذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك: أحد، أحد، ويقـــول : لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها . ومرّ به أبو بكر يوماً وهم يصنعون ذلك به فاشتراه بغلام أسود، وقيل : بسبع أواق أو بخمس من الفضة، وأعتقه) الرحيق المختوم .

- **وهذا عمار وأبوه وأمه رضي الله عنهم جميعاً:**

كانوا من أوائل من عذبهم الكفار، وكان عمار مولى لبني مخزوم قوم أبي جهل، فكان الكفار وعلى رأسهم أبو جهل يعذبونهم أشدّ العذاب، ثم يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء، فيعذبونهم بحرِّها، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا مرّ بهم وهم يعذبون يقول لهم: " صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنّة "، " ابشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنّة ".

فعذبوا في الله أشدّ العذاب حتى قُتِلَ ياسر رضي الله عنه تحت التعذيب، وقُتِلتْ زوجته سمية كذلك تحت التعذيب بطعنة من أبي جهل بحربته في قُبُلِها وموضع عفتها حتى خرجت

الحربة من وراء ظهرها، وكانت عجوزًا كبيرة ضعيفة، فكانا رضي الله عنهما أول شهيدين في الإسلام.

واشتدّ تعذيب الكفار بابنهما عمار رضي الله عنه بالحرّ تارة، وبالحرق ووضع الصخر على صدره، وبالتغريق تارة أخرى حيث كانوا يغطون وجهه في الماء حتى يفقد وعيه، ولم يكفوا عنه العذاب إلا بعد أن طاوعهم على قولهم بالنيل من النبي صلى الله عليه وسلم وذكر اللات والعزى بخير وهو مكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ومملوء بحب الله وحب رسوله.

وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه قال: [أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما وراءك شيء؟ قال: شرٌ ما تركت حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان قال: إن عادوا فعد فنزلت إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان]

فهؤلاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم ما طاوعوا الكفار على قولهم إلا لشدة التعذيب، وفظاعة التنكيل، وأمّا قلوبهم فكانت مطمئنة بالإيمان، راسخة باليقين، تُفيض بحب الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم، حتى إن أحدهم ليشعر بالحرج مما يصدر منه وهو في تلك الحالة من البلاء والعناء والإكراه، فلله درهم من أطواد صبر، وأئمة جَلَد.

- **وهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه:**

كان فتىً منعماً، من أنعم أهل مكة عيشة، وأكثرهم رغداً، وأترفهم حياة، فما إن امتلاء قلبه بنور الإيمان، وتذوق حلاوته، حتى اكتشف ما كان عليه من الضياع فألقى ثقال الترف والسرف والتنعم عنه، وارتضى حياة التقشف والتخشف، وصبر أمام الترغيب والترهيب، ولم يلق بالاً لما فاته مما كان يتقلب فيه من صنوف النعيم، وكيف لا وقد وضع نصب عينيه "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب" فلما أسلم، أجاعته أمه، وأخرجته من بيتها، حتى

تخشف جلده تخشف الحية،وصار يلبس الثياب المرقعة بعد أن يكان يتباهى بأنواع الحلل، روى الترمذي عن علي رضي الله عنه قال: [إنا لجلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد فاطلع علينا مصعب بن عمير، ما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى للذي كان فيه من النعمة والذي هو فيه اليوم، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في حلة؟ ووضعت بين يديه صحفة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة؟ ". فقالوا: يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم نتفرغ للعبادة ونكفى المؤنة، قال: " لا أنتم اليوم خير منكم يومئذ "]قال الهيثمي في (المجمع١٠/٥٦٥): رواه أبو يعلى وفيه راو لم يسم وبقية رجاله ثقات.

وبقي حال مصعب رضي الله عنه في فاقته وشدة حاجته صابرا محتسبا إلى أن لقي الله وهو على ذلك، فعن خباب بن الأرت –رضي الله عنه- قال هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نبتغي وجه الله تعالى، فوقع أجرنا على الله، فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئا، منهم مصعب بن عمير؛ قتل يوم أحد فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا نمرة، فكنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطينا رجليه خرج رأسه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "غطوا بها رأسه واجعلوا على رجليه الإذخر"، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها] متفق عليه.

- **وعُذب خباب بن الأرت رضي الله عنه:**

لمّا أسلم بالحديدة المحماة، كانت توضع على رأسه وظهره (فكان المشركون يذيقونه أنواعاً من التنكيل، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذباً، ويلوون عنقه تلوية عنيفة وأضجعوه مرات عديدة على فحام ملتهبة، ثم وضعوا عليه حجراً، حتى لا يستطيع أن يقوم) الرحيق المختوم.

وقد مر معنا حديثه آنفاً وشكايته إلى النبي صلى الله عليه وسلم شدة ما يلقى هو وأصحابه من أئمة كفار قريش.

وروى ابن ماجه وغيره بسند صحيح عن أبي ليلى الكندي قال: جاء خباب إلى عمر فقال: ادنُ؛ فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار. فجعل خباب يريه آثاراً بظهره مما عذبه المشركون.

(وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من ورق النخيل ثم يدخنه من تحته.

- **وكان صهيب بن سنان الرومي** يُعذَّب حتى يفقد وعيه ولا يدري مايقول.

- **وكان أبو فُكَيْهَة**

ــ واسمه أفلح ــ مولى لبني عبد الدار، وكان من الأزد. فكانوا يخرجونه في نصف النهار في حر شديد، وفي رجليه قيد من حديد، فيجردونه من الثياب، ويبطحونه في الرمضاء، ثم يضعون على ظهره صخرة حتى لا يتحرك، فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل، فلم يزل يعذب كذلك حتى هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وكانوا مرة قد ربطوا رجله بحبل، ثم جروه وألقوه في الرمضاء وخنقوه حتى ظنوا أنه قد مات، فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه لله.

- **نساء عذبن لمّا أسلمن:**

- وكانت زِنِّيرَةُ أمَةً رومية: قد أسلمت فعذبت في الله، وأصيبت في بصرها حتى عميت، فقيل لها : أصابتك اللات والعزى، فقالت: لا والله ما أصابتني، وهذا من الله، وإن شاء كشفه، فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها، فقالت قريش: هذا بعض سحر محمد.

- وأسلمت أم عُبَيْس جارية لبني زهرة، فكان يعذبها المشركون، وبخاصة مولاها الأسود بن عبد يغوث، وكان من أشد أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن المستهزئين به.

- وأسلمت جارية عمر بن مؤمل من بني عدى، فكان عمر بن الخطاب يعذبها ــ وهو يومئذ على الشرك ــ فكان يضربها حتى يفتر، ثم يدعها ويقول: والله ما أدعك إلا سآمة، فتقول : كذلك يفعل بك ربك.

- وممن أسلمن وعذبن من الجوارى: النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار.

- **وممن عذب من العبيد:** عامر بن فُهَيْرَة، كان يعذب حتى يفقد وعيه ولا يدرى ما يقول .

- **ولّما أسلم أبو ذر رضي الله عنه** وصدع بكلمة الحق (شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله) آذاه كفار قريش واعتدوا عليه بالضرب حتى كادوا يقتلونه فجاء العباس فخلصه منهم.

روى البخاري عن ابن عباس قال: لّما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي؛ فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، فاسمع من قوله ثم ائتني.
فانطلق الأخ، حتى قدمه وسمع من كلامه، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر.
فقال: ما شفيتني ما أردت.

فتزود وحمل شنّة له فيها ماء، حتى قدم مكة، فأتى المسجد، فالتمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه بعض الليل، فرآه عليّ فعرف أنه

غريب، فلمّا رآه تبعه، ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يراه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمر به عليّ فقال: أما آن للرجل أن يعلم مترله؟ فأقامه، فذهب به معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء.

حتى إذا كان يوم الثالث فعاد عليّ على مثل ذلك، فأقام معه، فقال: ألا تحدثني بالذي أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت. ففعل، فأخبره. قال عليّ: فإنه حق، وإنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك؛ قمت كأني أريق الماء. وإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي. ففعل، فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم، ودخل معه، فسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري ".

فقال: والذي نفسي بيده؛ لأصرخن ما بين ظهرانيهم. فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. ثم قام القوم، فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العباس، فأكب عليه، فقال: ويلكم!

ألستم تعلمون أنه من غفار؛ وأن طريق تجارتكم إلى الشام؟! فأنقده منهم.

ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا إليه، فأكب العباس عليه. وكان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال، والجاه، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به) الرحيق المختوم بتصرف.

- **ولم ينجُ من ذلك حتى صديق هذه الأمة أبوبكر رضي الله عنه:**

روى البخاري عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: لم أعقل أبوي قطّ إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفي النهار: بكرة وعشية، فلمّا ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ (برك الغماد) لقيه ابن الدّغنة، وهو سيد (القارة)، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟

فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الارض فأعبد ربي.

وفي رواية قال: أخرجني قومي، وآذوني، وضيّقوا علي.

فقال ابن الدّغنة: فإنّ مثلك يا أبا بكر! لا يخرج ولا يخرج مثله، إنّك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلدك.

فرجع وارتحل معه ابن الدّغنة، وطاف ابن الدّغنة في أشراف قريش، فقال لهم: إنّ أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟!

فلم يكذب قريش بجوار ابن الدّغنة وقالوا: لابن الدّغنة: مُر أبا بكر فليعبد ربه في داره، وليصل فيها ويقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنّا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فقال ابن الدّغنة ذلك لأبي بكر.

فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره.

ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم؛ يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن.

فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فارسلوا إلى ابن الدّغنة، فقدم عليهم، فقالوا: إنّا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن في الصلاة والقراءة فيه، وإنّا قد خشينا أن يفتن أبناؤنا ونساؤنا، فانْهَهُ، فإن أحب على أن يقتصر أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك؛ فسله أن يرد عليك ذمتك، فإنّا قد كرهنا نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: فاتى ابن الدّغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي قد عاقدتك عليه، فإمّا أن تقتصر على ذلك، وإمّا أن ترد إليّ ذمتي، فإنّي لا أحب أن تسمع العرب أنّي أخفرت في رجل عقدت له.

فقال أبو بكر: فإنّي أرد عليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل.

- **واستمر كفار قريش يعذبون كل من أسلم من المستضعفين من الصحابة:** فيجردونهم من ثيابهم ويلهبون جلودهم بالسياط، ويجعلون القيود في أرجلهم ويخرجونهم في حرّ الشمس يجرونهم على الرمضاء المحرقة، ويضعون على ظهورهم وصدورهم الصخور العظيمة حتى يُغشى على بعضهم من شدّة ما يلاقيه من تعذيب الكفار له.

وتفنن الكفار في تعذيب كل من أسلم من الصحابة الكرام ممن كان مستضعفاً في مكة، والنكال بهم، والنيل منهم،(والحاصل أنهم لم يعلموا بأحد دخل في الإسلام إلا وتصدوا له بالأذى والنكال، وكان ذلك سهلًا ميسورًا بالنسبة لضعفاء المسلمين، ولا سيما العبيد والإماء منهم، فلم يكن من يغضب لهم ويحميهم، بل كانت السادة والرؤساء هم أنفسهم يقومون بالتعذيب ويغرون الأوباش) الرحيق المختوم.

- **معانات الحصار:**

وقد استمر البلاء بالصحابة الكرام لسنوات عديدة أفراداً وجماعات، فحوصروا في الشعب – شعب بني طالب – ثلاث سنين ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضيق عليهم في الرزق حتى أكلوا أوراق الشجر والجلد البالي من شدة الجوع.

(واشتدّ الحصار، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعاماً يدخل مكة ولا بيعاً إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغهم الجهد، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يُسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع) الرحيق المختوم.

فحُوربوا من القرابة، وأوذوا من الناس، وأخرجوا من ديارهم ومراتع صباهم، وسُلبوا أموالهم وبيوتهم، فلم يبق لهم في مكة بيت ولا مال. سئل النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة أين تنزل غداً، هل تنزل في دارك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: " وهل ترك لنا عقيل من دار ".

وعندما أراد صهيب رضي الله عنه الخروج من مكة مهاجراً إلى المدينة منعوه من الخروج حتى افتدى منهم بماله كله فتركوه. فقد كانوا وهم في مكة مستضعفين في الأرض يخافون

أن يتخطفهم النّاس من كل جانب، قال الله تعالى يصف حالهم: {واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم النّاس}.

وفي المدينة ابتلوا وزلزلوا زلزالاً شديداً حتى بلغت القلوب منهم الحناجر، وعُرضت السيوف على رؤسهم، ووصل بهم من شدّة البلاء أن الواحد منهم لا يقدر على أن يذهب لقضاء حاجته، وذلك في يوم الأحزاب يوم اجتمع عليهم أهل الكفر من فوقهم ومن أسفل منهم. قال الله تعالى واصفاً حالهم ذلك {إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً}.

- **مقتلة كبيرة.. من دماء عظيمة :**

وقبل ذلك نزل بهم البلاء يوم أحد، فقتل سبعون من الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم في معركة أحد، وبعدها في وقعة بئر معونة قُتل سبعون من القراء، وفي يوم الرجيع قتل منهم جماعة وأُسر خبيب وزيد بن الدثنة رضي الله عنهما. وجاءوا بهما إلى مكة ليقتلا ببعض من قُتِل من الكفار يوم بدر، واستمر بهم البلاء أفراداً وجماعات فقتل زيد بن حبيب رضي الله عنه على يدي مسيلمة الكذاب لمّا بعثه الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم برسالة إليه، فخرج إلى مسيلمة ليبلغه رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، وهو يعلم أنّه قد لا يرجع، فبلّغ رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم، فأخذه مسيلمة وعذبه وقطعه قطعة قطعة حتى قُتل شهيداً صابراً، ما لان، وما تردد، وما اهتز، وما رجع عن دينه، بل بقي ثابتاً ثبوت الجبال الرواسي الشامخات إلى أن فارقت روحه جسده الطيب، وهو يُقر بالرسالة للنبي صلى الله عليه وسلم، ويشهد لمسيلمة بأنه كذاب.

فسنة الله ماضية في نزول البلاء والمحن بعباد الله المؤمنين في هذه الأمة وفي الأمم السابقة والقرون الماضية. قال الله تعالى {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب}.

- **العظماء والبلاء:**

وجرى البلاء على عباد الله المؤمنين من هذه الأمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يتوقف بوفاته، فضُرج عمر بدمائه وهو يصلي، واغتيل عثمان في بيته، وطُعن علي في مسجده، وقُتل الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ظلماً وعدواناً، وجُلدت ظهور الأئمة بالسياط، وسُجن وقُتل خيار الأمة، ونُكل بأبرارها.

وهذا الإمام أحمد بن حنبل لاقى الكثير من البلاء في فتنة خلق القرءان فسجن وعذب وجلد ظهره بالسياط وانخلعت يداه.

قال الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء ما ملخصه: حبس أبو عبد الله أحمد بن حنبل في دار عمارة ببغداد في اصطبل، وكان في حبس ضيق ومرض في رمضان ثم حول بعد إلى سجن العامة فمكث في السجن نحوا من ثلاثين شهرا وكان المعتصم يرسل له من يناظره في مسئلة خلق القرءان وكان يزيد في قيوده في كل مرة حتى صار في قدمي الامام أحمد أربعة أقياد لا يكاد يقوى على حملها ثم أمر المعتصم بحمل أحمد إلى مجلسه وكان ذلك في الليلة الرابعة فقال له إسحاق بن إبراهيم: (يا أحمد إنها والله نفسك إنه لا يقتلك بالسيف إنه قد آلى إن لم تجبه أن يضربك ضربا بعد الضرب وأن يقتلك في موضع لا يرى فيه شمس ولا قمر) فلم يثنيه ذلك عن قول الحق، وحمل إلى مجلس المعتصم يكاد يسقط على وجهه غير مرة من ثقل القيود، وناظره أحمد بن أبي داود وأصحابه في مجلس المعتصم ثلاثة أيام وهو ثابت على قول الحق ثبات الجبال الرواسي، ولم يجبهم الى القول بخلق القرءان.

يقول الامام أحمد (فلمّا كان من الغد أدخلت إلى الدار فإذا هي غاصة فجعلت أدخل من موضع إلى موضع وقوم معهم السيوف وقوم معهم السياط وغير ذلك ولم يكن في اليومين الماضيين كبير أحد من هؤلاء فلما انتهيت إليه قال اقعد ثم قال ناظروه كلموه فجعلوا يناظروني يتكلم هذا فأرد عليه ويتكلم هذا فأرد عليه وجعل صوتي يعلو أصواتهم، فجعل بعض من هو قائم على رأسي يومئ إلي بيده، فلما طال المجلس نحاني، ثم خلا بهم نحاهم، وردني إلى عنده وقال ويحك يا أحمد أجبني حتى أطلق عنك بيدي فرددت عليه نحو ردي فقال عليك وذكر اللعن خذوه اسحبوه خلعوه. فسحبت وخلعت وجلس المعتصم على كرسي ثم قال العقابين والسياط فجيء بالعقابين فمدت يداي فقال بعض من حضر خلفي

خذ ناتئ الخشبتين بيديك وشد عليهما فلم أفهم ما قال فتخلعت يداي ولّما جئ بالسياط نظر إليها المعتصم فقال ائتوني بغيرها ثم قال للجلادين تقدموا فجعل يتقدم إلي الرجل منهم فيضربني سوطين فيقول له شد قطع الله يدك ثم يتنحى ويتقدم آخر فيضربني سوطين وقال بعضهم يا امير المؤمنين دمه في عنقي أقتله) سير اعلام النبلاء.

فجلد رحمه الله حتى ذهب عقله وأغمي عليه. وكان أثر الضرب بينا في ظهره إلى أن توفي رحمه الله.

وكان مكثه في السجن منذ أخذ إلى أن ضرب وخلي عنه ثمانية وعشرين شهرا.

- **هذا الدين محفوظ بحفظ الله:**

بل إن الأمة الإسلامية جميعا تعرضت لصور من البلاءات الجماعية والمحن الشاملة العارمة ما يدل دلالة قاطعة أن هذا الدين محفوظ بحفظ الله، ولولا ذلك لما بقيت منه باقية، ولذهبت به عواصف التغيير والتحريف والقهر والكبت كما ذهبت بغيره من الأديان الماضية، ولما خرج من كل محنة وفتنة أكثر تحديا، وأنصع تجلياً، وأصلب عوداً، ولما أصبحت أعاصير الشدائد قصصاً تروى وحكايات تذكر احتضنتها صفحات التاريخ بما فيها من مآس وسوء، وإشراق وضوء، وكفر وفظاظة، وإيمان ويقين حتى صارت منهل المعتبرين ومورد المتعظين: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}ق٣٧،

- **أين أعداء هذا الدين:**

فأين التتار وسيلهم العارم الجارف، وأين العبيديون وخبث مكرهم وتلون كيدهم، وأين الصليبيون وشناعة أفاعيلهم وبشاعة حقدهم وحسدهم، كل ذلك تحطم على صخرة الإيمان الصلبة، وتفتت أمام عزائم الرجال الحازمة، وتقهقر لا يلوي على شيء بعد أن مزقت أكسيته سهام الإيمان الصائبة، وهكذا سيكون مصير اللاحق كما كان مآل السابق، فذهب المفسدون الأولون بالأوزار والأوضار وانقلب المؤمنون الصابرون بثناء الدنيا وفوز الآخرة، وهي خير وأبقى.

- **زاد المؤمن:**

فليكن زاد المؤمن في كل حين وعند أية محنة صبراً وتصبراً واحتساباً للحظاته وترقباً لفرج آتٍ لا محالة، وليجعل لنفسه إيماناً يتزود به عند المضائق، ويستأنس بنوره إن غطته ظلمات الوحشة، وليعلم أن أمر المؤمن كله له خير.

وما أجمل ما خطه يراع إمام من أئمة الصبر والعلم والتجربة وهو شيخ الإسلام رحمه الله حيث يقول: (وهكذا إذا أوذي المؤمن على إيمانه وطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان وإن لم يفعل أوذي وعوقب فاختار الأذى والعقوبة على فراق دينه: إما الحبس وإما الخروج من بلده كما جرى للمهاجرين حيث اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين وكانوا يعذبون ويؤذون. وقد أوذي النبي صلى الله عليه وسلم بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبرا اختياريا فإنه إنما يؤذى لئلا يفعل ما يفعله باختياره وكان هذا أعظم من صبر يوسف: لأن يوسف إنما طلب منه الفاحشة وإنما عوقب إذا لم يفعل بالحبس والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه طلب منهم الكفر وإذا لم يفعلوا طلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه وأهون ما عوقب به الحبس فإن المشركين حبسوه وبني هاشم بالشعب مدة ثم لما مات أبو طالب اشتدوا عليه فلما بايعت الأنصار وعرفوا بذلك صاروا يقصدون منعه من الخروج ويحبسونه هو وأصحابه عن ذلك ولم يكن أحد يهاجر إلا سرا إلا عمر بن الخطاب ونحوه فكانوا قد ألجئوهم إلى الخروج من ديارهم ومع هذا منعوا من منعوه منهم عن ذلك وحبسوه. فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة لله ورسوله لم يكن من المصائب السماوية التي تجري بدون اختيار العبد من جنس حبس يوسف لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه وهذا أشرف النوعين وأهلها أعظم درجة - وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه وتكفر عنه الذنوب بمصائبه - فإن هذا أصيب وأوذي باختياره طاعة لله يثاب على نفس المصائب ويكتب له بها عمل صالح. قال تعالى: {ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين}. بخلاف المصائب التي تجري بلا اختيار العبد كالمرض وموت العزيز عليه

وأخذ اللصوص ماله فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها لا على نفس ما يحدث من المصيبة؛ لكن المصيبة يكفر بها خطاياه فإن الثواب إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما يتولد عنها. والذين يؤذون على الإيمان وطاعة الله ورسوله ويحدث لهم بسبب ذلك حرج أو مرض أو حبس أو فراق وطن وذهاب مال وأهل أو ضرب أو شتم أو نقص رياسة ومال هم في ذلك على طريقة الأنبياء وأتباعهم كالمهاجرين الأولين فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به ويكتب لهم به عمل صالح كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب وعلى غيظه الكفار وإن كانت هذه الآثار ليست عملا فعله يقوم به لكنها متسببة عن فعله الاختياري وهي التي يقال لها متولدة) مجموع الفتاوى١٠/١٢٤

- **حكمة الابتلاء:**

في الابتلاء حكم عديدة وغايات محمودة وعواقب مرضية جرت بها سنّة الله سبحانه وتعالى في نزوله بالرسل وأتباعهم والمؤمنين من بعدهم، وقد جرت وفق حكمته سبحانه وتعالى.

- **منها: تمييز المؤمنين الصادقين من غيرهم.**

فيُدالون مرةً ويُدال عليهم مرة أخرى، ليتميز من يتبعهم للحق ممن يتبعهم وقت الغلبة والنصر خاصة، ثم تكون لهم في نهاية الأمر الغلبة والتمكين.
ف(حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم، جرت بأن يُدالوا مرة، ويُدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنّهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انْتصِرَ عليهم دائماً، لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين – النصر والهزيمة – ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق، وما جاءوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة) زاد المعاد.
قال الله تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت/٢، ٣]

قال الإمام السعدي –رحمه الله – في تفسير هذه الآية: [يخبر تعالى عن تمام حكمته وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال " إنه مؤمن " وادعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة، فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر اللّه به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته.ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكا وريبا، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدفه عن الواجبات، دلَّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.

والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا اللّه، فمستقل ومستكثر، فنسأل اللّه تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكير، يخرج خبثها وطيبها.](تفسير السعدي: ١ / ٦٢٦).

وقال سبحانه وتعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [العنكبوت/١٠، ١١]

وهذا كما قال عز وجل: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج/١١]

ولّما بعث النبي صلى الله عليه وسلم برسالته إلى هرقل ملك الروم سأل هرقل هل أحد من قومه هنا بالشام ليسأله عنه، فصادف وجود أبي سفيان في تجارة له في الشام – وكان يومها على الكفر - فأحضره وسأله عدّة أسئلة ليتبين بها صدق النبي صلى الله عليه وسلم، فكان مما سأله عنه الحرب بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم كيف هي؟ فقال

أبو سفيان: سِجال، يُدال علينا ونُدال عليه، فقال هرقل: (كذلك الرسل، تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة).

فإنهم لو انتصروا على الدوام لدخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، فاقتضت حكمة الله بعد أن نصرهم في بدر أن قيض لهم محنة يبتليهم ويختبرهم بها، لأن بعض الكفار قد دخلوا في الإسلام ظاهراً لما رأوا أن أمر الإسلام قد ظهر بعد بدر وكفروا باطناً، ولهذا فإن النفاق ما نبغ إلا بعد غزوة بدر كما جاء في قصة بدر: [فلما غَزَا رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَدْرًا فَقَتَلَ الله بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ قال ابن أُبَيٍّ بن سَلُولَ وَمَنْ معه من الْمُشْرِكِينَ وَعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ هذا أَمْرٌ قد تَوَجَّهَ فَبَايَعُوا الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم على الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمُوا]

ثم ابتلاهم الله بغزوة أحدٍ فكانت امتحاناً واختباراً وتمحيصاً لهؤلاء، فرجع فيها رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الجيش ولهذا أنزل الله تعالى مبيناً حكمته في مصيبة أحد: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} [آل عمران/١٦٦، ١٦٧]

قال العلامة السعدي –رحمه الله- في هذه الآية: [ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان، جمع المسلمين وجمع المشركين في "أحد" من القتل والهزيمة، أنه بإذنه وقضائه وقدره، لا مرد له ولا بد من وقوعه. والأمر القدري -إذا نفذ، لم يبق إلا التسليم له، وأنه قدره لحكم عظيمة وفوائد جسيمة، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق](تفسير السعدي ١ / ١٥٦)

وقال تعالى أيضاً في سياق أحداث غزوة أحد: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [آل عمران/١٧٩]

قال العلامة السعدي –رحمه الله-: [أي: ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التميز * حتى يميز الخبيث من الطيب، والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب.

ولم يكن في حكمته أيضا أن يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده، فاقتضت حكمته الباهرة أن يبتلي عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل الله رسله، وأمر بطاعتهم، والانقياد لهم، والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم.](تفسير السعدي ١ / ١٥٨).

يقول ابن القيم في الحِكَم من ابتلاء المسلمين يوم أحد [ومنها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإنّ المسلمين لّما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر وطار لهم الصيت، دخل معهم في الإسلام ظاهراً من ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانون يكتمونه، وظهرت مخبآتهم، وعاد تلويحهم تصريحاً، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن، ومنافق، انقساماً ظاهراً](زاد المعاد: ٣/١٩٦).

فالابتلاءات والمحن تُظهر الصادق من الكاذب، والطيب من الخبيث، والمؤمن من المنافق، قال الله تعالى: {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء/١٤١]}.

والتمييز بين المؤمنين الصادقين، والمنافقين الكاذبين ضروري ومهم تماماً كالتمييز بين الحق والباطل والهدى والضلال وسبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، فالمنافقون هم أخطر أعداء الأمة، وأشدهم خبثاً ، وأعظمهم رجساً، وأفسدهم طوية، وأضيعهم هوية؛ إذ هم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فبقاؤهم –من غير تمايز- بين أظهر المؤمنين يطلعون على أسرارهم، ويعلمون عوارتهم، وينشرون أسرارهم كل ذلك من أعظم أسباب فشو الفساد والاختلاف والشبهات واختلال أمر الدين، فكان تمييزهم بحيث يعرفون بنفاقهم على رؤوس الأشهاد من أعظم الحكم التي يصان بها المجتمع المسلم، فلا غرو إذاً أن نرى الآيات الطويلة والمتكررة في كتاب الله وهي تفضح المنافقين وتعريهم وتعرف المسلمين بصفاتهم

كي لا يغتروا بحسن أجسامهم، ولا فصاحة ألسنتهم، وإلا فقد جاء في الحديث: [أكثر منافقي أمتي قراؤها]رواه أحمد، والطبراني.

فالعبرة بما في الصدور من الصدق والإيمان والولاء لله ولرسوله وللمؤمنين لا بالمظاهر الخادعة الكاذبة: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون/٤]

- **ومنها: أنّه تُستخرج بها صفاته وأسماؤهُ سبحانه وتعالى:**

فمن أسمائه المولى، والنصير، والولي، والقريب، ومن صفاته أنّه كاشف الضرّ والغمّ، وفارج الكرب، وهذه الأسماء والصفات يتدبرها أكثر من أصابه الكرب والغمّ والهمّ، ونزلت به المحن، واحتاج للنصير والمعين، وخاصة إذا أُغلقت أمامه كل الأبواب، وسُدّت أمامه كل الطرق، وانقطعت به كل السبل، و لم يبق إلا بابه وطريقه وسبيله سبحانه وتعالى.

فأسماؤُهُ سبحانه وتعالى وصفاته تقتضي آثارها اقتضاء الأسباب لمسبباتها.

[ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات، إذ هي أسماء حسنى وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة، وإحسان وجود، فلابد من ظهور آثارها في العالم. وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول: " لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، ثم يستغفرون فيغفر لهم "] مدارج السالكين.

ولهذا فحتى المشركين الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى، حينما تُطبق عليهم المحن، ويُحال بينهم وبين أسباب النجاة، ويعاينون الموت أهوالاً تترى، يضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل، ويلجأون إلى مَن يعلمون قدرته على كشف الكرب، وإجابة الدعوات عند نزول الخطب، كما ذكر الله ذلك في مواطن عديدة من كتابه الكريم منها قوله: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ} [الأنعام/٦٣، ٦٤].

وقال عز من قائل: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} [الإسراء/٦٧]

وقال سبحانه وتعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [يونس/٢٢]ونحوها من الآيات التي تدل على أن وقوع الضيق والشدة، وانقطاع الأسباب تدفع القلوب –طوعاً أو كرهاً- للتضرع والدعاء والنداء والتوحيد، وعلى هذا جبل بنو آدم كما قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[يونس/١٢]، قال الإمام ابن كثير –رحمه الله -: [وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء، {مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ}

ثم ذم تعالى مَنْ هذه صفته وطريقته فقال: {كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك](تفسير ابن كثير: ٤ / ٢٥٢).

وكما قال سبحانه: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ} [فصلت/٥١]، فالآية فرقت بين حال الإنسان في سعته ونعمائه وراحته فلا يلتفت إلى ربه ولا يظهر له فقره وحاجته حتى إذا مسه الشر ونزل به الضر اجتهد في الدعاء وأكثر منه أيما أكثار وتوسع فيه غاية التوسع وأظهر بين يدي خالقه من الانكسار والافتقار والمناجاة ما لم يكن يعرفه أو يخطر على باله حال رخائه، وهتف بربه بكل اسم وصفة حتى يكشف ضره ويزيل كربه، ولولا البلاء لما كان هذا، قال الإمام الشوكاني – رحمه الله-: [والمعنى: أنه إذا مسه الشرّ تضرّع إلى الله، واستغاث به أن يكشف عنه ما نزل به، واستكثر من ذلك، فذكره في الشدّة، ونسيه في الرخاء، واستغاث به عند نزول النقمة، وتركه عند حصول النعمة، وهذا صنيع الكافرين، ومن كان غير ثابت القدم من المسلمين](فتح القدير: ٦ / ٣٦٤).

ومعرفة المؤمنين لأسماء الله وصفاته متفاوتة تفاوتاً لا يحصيه إلا الله تعالى، بل المؤمن يجد في نفسه من التفاوت في ذلك بين حين وحين وحال وحال شيئاً عظيماً؛ فالله يبتلي عبده ويمتحنه ليلجأ إليه ويدعوه بأسمائه وصفاته، ويعاين وهو في محنته آثار تلك الأسماء والصفات، من الحفظ ولطف التدبير والمكر بالأعداء وصرف السوء وإجابة الدعوات، وصرف الكربات ما لا يمكن تحصيله في حالة السعة والرخاء فيزداد إيماناً على إيمانه.

- **ومنها: أنّ لله عز وجل على عباده عبادة في الضراء، كما له عليهم عبادةٌ في السراء:**

فمن ثبت على لزوم طاعته فيما يحب وفيما يكره فهو عبده حقاً وصدقاً، وليس كمن يعبد ربه على حرف فإن مسته حسنة اطمئن بها، وإن أصابته سيئة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة.

[ومنها استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حالة ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون، فهم عبيده حقاً، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية] (زاد المعاد:٣/١٩٦).

والابتلاءات والمحن يجب ألا ترد العبد المؤمن عن إيمانه، ولا تمنع المجاهد من مواصلة جهاده، ولا تكف الداعية عن تبليغ دعوة ربِّه، بل لا تزيده إلا إصراراً على مواصلة طريقه، ولا تكسبه إلا يقيناً أنّه على الحق، ولا تعطيه إلا ثقةً بنصر الله لعباده المؤمنين، وليكن قدوته في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام رضي الله عنهم، فبعد الآلام والجراحات في يوم أحد خرج بهم النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم التالي إلى حمراء الأسد لِقتالِ الكفار خشية إرادتهم الرجوع إلى المدينة، ولم يتخلف منهم في هذا الخروج أحد ممن حضر بالأمس في غزوة أحد، ولم يأذن لأحد بالخروج معه ممن تخلف عن أحد إلا جابر رضي الله عنه، فاستجابوا لأمره جميعاً مع ما بهم من الجراحات والقروح والآلام الشديدة. وما زادتهم المحنة إلا صبراً وإيماناً وثقةً واستسلاماً وإذعاناً لأمر الله {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ

وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران/١٧٣]،وكما قال الله تعالى في حقهم أيضاً يوم الأحزاب وحينما بلغت القلوب الحناجر وظهر ما في قلوب أهل النفاق من الارتياب والاضطراب: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب/٢٢]، وكما قال يعقوب عليه السلام لَمّا ابتلي بابنه الثاني بعد محنته الطويلة في فقدان يوسف عليه السلام فحينها ازداد يقينه بالله وأحسن الظن به وانبعث الأمل في قلبه: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف/٨٦-٨٧]

- **ومنها: أنّه سبحانه وتعالى يُقيم ويُصلح نفوس عباده المؤمنين بالبلاء والمحن:**

فلو نصرهم دائماً، وكتب لهم العافية، وجعل لهم التمكين في الأرض على الدوام من غير بلاء ومحن لربما طغت نفوسهم، وتجبروا في الأرض وأفسدوا فيها، كما لو بسط للإنسان في الرزق لربما طغت نفسه. قال الله تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى [العلق/٦، ٧]}.

فلا يصلح نفوس عباده إلا السراء والضراء، والشدّة والرخاء، والعسر واليسر حتى تستقيم على الحق، فترجع إن شردت، وتتنبه إن غفلت، وتنكسر إن طغت، وتتواضع إن استعلت.

فالله سبحانه [لو نصرهم دائماً، وأظفرهم بعدوهم في كل موطن، وجعل لهم التكمين والقهر لأعدائهم أبداً، لطغت نفوسهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر، لكانوا في الحال التي يكون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء، والشدّة والرخاء، والقبض والبسط، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته، إنّه بهم خبير بصير](زاد المعاد: ٣/١٩٦).

- **قد تكون المحنة منحة:**

فقد يسقي الله عز وجل عبده المؤمن المحن، ويُنزل به من البلاء ما يكون فيه عافيته ورده إليه، كما يسقي الطبيب مريضه الدواء الكريه ليعافيه ويرد صحته إليه.

وقد يقطع الله عن عبده السراء والنعماء والرخاء ويصيبه بالمحن والابتلاءات رحمة به لا غضباً عليه، وحباً له لا بغضاً له، كما يقطع الطبيب عضواً من أعضاء جسم مريضه حفاظاً على حياته وعلى صحة مريضه، ولو تركه على ما هو عليه لربما كان فيه هلاكه.

وهذه سنته سبحانه مع خلقه يأخذهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون إليه، فترى أمماً هائمة ضائعة تائهة لا تعرف حقاً ولا تنكر منكراً، وقد ركبت في معصية الله الصعب والذلول، وضربت في السهل والوادي، فيصيبهم الله ببلاء ومحنة وشدة عسى أن يتوبوا ويأوبوا كما قال عز وجل: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف/١٣٠].

وقال عز وجل: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ}[الأعراف/٩٤]

وقال سبحانه: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام/٤٢، ٤٣]

وقال عز وجل {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف/١٦٨]، قال الإمام ابن جرير الطبري – رحمه الله- في هذه الآية: [

واختبرناهم بالرخاء في العيش، والخفض في الدنيا والدعة، والسعة في الرزق، وهي "الحسنات" التي ذكرها جل ثناؤه ويعني ب"السيئات"، الشدة في العيش، والشظف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال "لعلهم يرجعون"، يقول: ليرجعوا إلى طاعة ربهم وينيبوا إليها، ويتوبوا من معاصيه.](تفسير الطبري: ١٣ /٢٠٨- ٢٠٩)ونظير هذه الآيات كثير في كتاب الله، وكلها تدل على المعنى الذي أشرنا إليه، وهو أن الله سبحانه يبتلي العباد بأنواع المحن من الفقر، والجوع، والمرض، والقوراع، وغيرها لعلها تكون سبباً في توبتهم عن فسقهم وكفرهم، وداعياً لرجوعهم إلى ربهم.

- **ومنها: أن يجعل عبده المؤمن يتذلل ويخضع وينكسر بقلبه بين يديه:**

وهذا مما يحبه الله ويرضاه من عبده، وبمقدار انكسار عبيده وتذللهم وخضوعهم له يكون قربهم منه واستحقاقهم لنصره وتأييده، والعكس بالعكس فكلما بعدت القلوب عن الله وأصابها الزهو والعجب كانت أبعد عن معونته ومعيته، ولهذا فإن عناية المجاهدين بإصلاح قلوبهم وتزكيتها وتخليصها من أمراضها ينبغي أن لا تقل بحال عن عنايتهم بتحصيل الأسباب المادية الظاهرة في مقاتلة أعدائهم بل هذه أولى وأهم وأعظم، فانظر كيف رتب الله عز وجل الفتح والظفر والغنيمة على ما علمه مما كانت قلوب الصحابة تمتلئ به من الإيمان والإخلاص والصدق فقال سبحانه: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [الفتح/١٨، ١٩]

- **لماذا نزلت المحنة يوم حنين؟**

وهذا بخلاف ما حدث لهم يوم حنين لمّا أُعجب بعضهم بكثرتهم فالتفتت قلوبهم التفاتة قصيرة إلى شيء من الأسباب المادية وظنوا أن النصر إنما يحصل بها فقالوا لن نغلب اليوم من قلة، فردهم الله إليه بإنزال المحنة بهم أول الأمر كي لا يغفلوا عنه ولا يلتفتوا إلى سواه ثم أنزل توجيهه إليهم في كتابه ليبقى درساً ينتفعون به هم ومن يأتي بعدهم من المؤمنين قال الله تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ} [التوبة/٢٥].

قال الإستاذ سيد قطب –طيب الله ثراه-: [إن معركة حنين التي يذكرها السياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله، والاعتماد على قوة غير قوته، لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية، حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة، إن الكثرة العددية ليست بشيء، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة. وإن الكثرة لتكون أحياناً سبباً في الهزيمة، لأن بعض الداخلين فيها، التائهين في غمارها، ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التي

ينساقون في تيارها، تتزلزل أقدامهم وترتجف في ساعة الشدة؛ فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله، انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة](في ظلال القرآن: ٣ / ٤٩٤)

فمتى نزل بالعبد المؤمن البلاء، تذلل إلى ربّه وانكسر قلبه بين يديه، وعندها استحق من الله رفع البلاء وكشف الضرّ عنه، واستحق النصر والغلبة والتمكين.

فالله عز وجل يحبّ من عبده أن يتذلل بين يديه، ويحب أن يسمع من عبده تضرعه ومناجاته ودعاءه وشكواه بتذلل وخشوع وانكسار قلب.

قالوا أتشكو إليه **** ما ليس يخفى عليه

فقلت ربي يرضى **** ذلّ العبيد لديه

- **متى يكون الله قريبا من عبده؟**

وكلمّا كان العبد أكثر تذللاً وأكثر انكساراً لله كان الله أقرب إليه، فإن الله عند المنكسرة قلوبهم لأجله، ولذلك كان العبد أقرب ما يكون من ربّه وهو ساجد، لأنه موضع ذلّ وانكسار قلب وخضوع، ويقول الله تعالى يوم القيامة كما جاء في الحديث القدسي " يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، فيقول العبد: يا ربّ كيف أعودك وأنت ربّ العالمين؟ فيقول الله تعالى: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ". لأن الله عز وجلّ عند المنكسرة قلوبهم والمريض ينكسر قلبه لله بسبب المرض فيكون الله قريب منه.

- **وفي قصة قوم يونس عليه السلام**

لّما خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم وتحققوا نزول العذاب بهم تابوا الى الله وءامنوا به وأنابوا إليه وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم والتجؤا الى الله ليكشف عنهم العذاب ولبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا إلى الله عز وجل بالدعاء وصرخوا وتضرعوا إليه وتمسكنوا لديه وتذللوا بين يديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، فَرَغَتْ الأبلُ وفصلانُها، وخارت

البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة. فكشف الله عز وجلّ بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببه. قال الله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس/٩٨].

- **ومنها: أنّه بالمحن والابتلاءات يقربهم إليه، ويرفع من درجاتهم:**

فلربما كتب الله لعبده المؤمن منزلة في الجنّة لا يبلغها بمجرد عمله، فيبتليه ليرفع من درجته، ويبلغه منزلته التي كتبها له.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة فلم يبلغها بعمل ابتلاه الله في جسده أو ماله أو في ولده ثم صبر على ذلك حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل]رواه أحمد، وأبو داود، وأبو يعلى، والطبراني في الكبير والأوسط.

فالله سبحانه [هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها] زاد المعاد.

- **هل المحن تقرب العبد من ربه؟**

فالمحن تقرب العبد من ربّه، وترفع من درجته، ليبلغ المنزلة العليا التي كتب الله له، وهي بالتالي دليل على حبِّ الله له وليست دليلا على بغض الله له. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من يُرد به خيراً يصب منه "، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، إنّ الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السُّخط ".

والله عز وجلّ إذا أراد بعبده خيرا عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد شرّاً أمسك عليه ذنوبه حتى يوافيه يوم القيامة كما في الحديث.

كما أن المحن والبلاءات تستدعي من صاحبها الصبر، فإذا صبر المبتلى واتقى وأحسن نال بذلك الإمامة في الدين والتي تكون سبباً في نيل الدرجات العلى كما قال الله عز وجل: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآَيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة/٢٤]
وكما قال على لسان يوسف عليه السلام: {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف/٩٠]

- **ومنها: أنّه يُطهرهم بها من الذنوب، ويُكفر بها عنهم الخطايا والسيئات:**

فإذا أذنب العبد المؤمن ذنباً ابتلاءه الله بمحنة رحمة به لا غضباً عليه، وحباً له لا بغضاً له، وشفقة به لا نقمة عليه، ليطهره من ذنبه ويخلصه من أثره وعواقبه في دار الآخرة.
قال الله تعالى {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء/١٢٣]
قال الإمام السعدي-رحمه الله-: [وهذا شامل لجميع العاملين، لأن السوء شامل لأي ذنب كان من صغائر الذنوب وكبائرها، وشامل أيضا لكل جزاء قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي.
والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فمن كان عمله كله سوءا وذلك لا يكون إلا كافرا. فإذا مات من دون توبة جوزي بالخلود في العذاب الأليم.
ومن كان عمله صالحا، وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار فما يصيبه من الهم والغم والأذى وبعض الآلام في بدنه أو قلبه أو حبيبه أو ماله ونحو ذلك - فإنها مكفرات للذنوب، وهي مما يجزى به على عمله، قيضها الله لطفا بعباده، وبين هذين الحالين مراتب كثيرة.
وهذا الجزاء على عمل السوء العام مخصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص.](تفسير السعدي ١ / ٢٠٥).
ورُوي أنّه لمّا نزلت هذه الآية قال أبو هريرة رضي الله عنه: بكينا وحزنا وقلنا يا رسول الله ما أبقت هذه الآية من شيء. قال: " أمّا والذي نفسي بيده إنها لكم أُنزلت، ولكن

أبشروا وقاربوا وسددوا، فإنه لا يصيب أحداً منكم مصيبة في الدنيا إلا كفر الله بها حتى الشوكة يُشاكها أحدكم في قدمه ".

وعن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه.]متفق عليه.

وروى الإمام أحمد عن أبي بكر بن أبي زهير قال: أُخبرتُ أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية {ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يُجز به}، فكل سوء عملناه جُزينا به؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " ألست تمرض، ألست تنصب، ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء؟

قال: بلى.

قال: " فهو مما تُجزون به ".

وقوله صلى الله عليه وسلم: " ما من مسلم يُصيبه أذى، شوكةٌ فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحُطّتْ عنه ذنوبه كما تحطّ الشجرةُ ورقها ".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الصالحين يشدد عليهم، وإنّه لا يصيب مؤمنا نكبة من شوكة فما فوق ذلك إلا حطت بها خطيئة، ورفع بها درجة ".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم العلاء: " يا أم العلاء أبشري فإن مرض المسلم يُذهب الله به خطاياه كما تُذهب النار خبث الحديد والفضة " رواه أبو داود.

فالمرض مثلاً مع ما فيه من مكاره إلا أنّه لا يخلو من محاب وخصال عدّة لو تفكر فيها العبد لما كره ما أصابه من مرض.

دخل النبي صلى الله عليه وسلم على أم السائب أو أم المسيب فقال لها: " مالك تُزفرين؟ قالت: الحمى لا بارك الله فيها. فقال: " لا تسبي الحمى، فإنها تُذهب خطايا بني آدم كما يُذهب الكير خبث الحديد ".

وروى الامام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رجل لرسول الله صلى الله عليه: (أرأيت هذه الأمراض التي تُصيبنا ما لنا بها؟ قال: " كفارات ".

قال أبي: وإن قلت؟

قال: " حتى الشوكة فما فوقها ".

قال فدعا أبي على نفسه أنّه لا يفارقه الوعك حتى يموت، في أن لا يُشغله عن حجٍّ، ولا عمرةٍ، ولا جهادٍ في سبيل الله، ولا صلاة مكتوبة في جماعة، فما مسه إنسان إلا وجد حره حتى مات رضي الله عنه) رواه أحمد وابن أبي الدنيا وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه .

لعل عتبك محمود عواقبه **** وربما صحت الأجساد بالعلل

ومن هذه الخصال والمحاب أنّ الله يكفر بها عن عبده الخطايا والذنوب ويمحو بها عنه السيئات، ويرفعه بها أعلى الدرجات.

فإن العبد المؤمن إذا كثرت ذنوبه ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله بالأحزان والآلام ليكفرها عنه، فكل ما يصاب به المسلم كفارة لذنبه حتى الشوكة يُشاكها أو النكبة ينكبها.

فالمصائب والأحزان والامراض والمحن التي تصيب المسلم في هذه الدنيا هي جزاء لما ارتكب من ذنوب ومعاصي وآثام ليطهره الله بها حتى يلقى الله وليس عليه ذنب أو خطيئة، فهي مكفرة للذنوب والخطايا. بينما الكفار يجمع الله عليهم الأحزان والأمراض والمصائب والمحن في الدنيا، ويعذبهم بها في الآخرة.

[فإنّه ما أصاب المؤمن همّ ولا غمّ ولا أذى إلا كفر الله به من خطاياه، فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب، ومن رضي أن يلقى الله بأدوائه كلها وأسقامه، ولم يداوه في الدنيا بدواء يوجب له الشفاء فهو مغبون سفيه، فأذى الخلق لك كالداء الكريه من الطبيب المشفق عليك، فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته ومن كان على يديه، وانظر إلى شفقة الطبيب الذي ركبه لك، وبعثه إليك على يدي من نفعك بمضرته] مدارج السالكين.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشرّ أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة ". فهذه المصائب تكفر عنه تلك الذنوب. فما نزل بلاء إلا بذنب، وما رفع إلا بتوبة ويعفو عن كثير. قال الله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى/٣٠]

وقال سبحانه: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [النحل/٦١]

[فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، قال الله تعالى: {وماأصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}، وقال لخيار خلقه من أصحاب نبيه {أولّما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنّفسكم}، وقال تعالى: {ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك} والمراد بالحسنة هنا النعم التي تصيب العبد من الله، ولهذا قال {ما أصابك} ولم يقل ما أصبت فكل نقص وبلاء وشرّ في الدنيا والآخرة فسببه الذنوب ومخالفة أمر الرب، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباها] مدارج السالكين.

- **فالمصائب والمحن والابتلاءات يُطهر الله بها العبد من الذنوب:**

ويذكر بعض العلماء منهم شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى في مواضع عدّة أثراً إلهيا في هذا المعنى ولا يعزونه، يقول الله تعالى فيه: [أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل مصيبتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، ابتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب].وهذه المعاني لها ما يشهد لها في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

فلا تحزن يا عبد الله من محنة أصابتك فقد تكون منحة، ولا تحزن من بلية نزلت بك فقد تكون عطية، وفي الصباح يحمد القوم السرى.

فالبلاء ما وقع على المؤمن ليهلكه الله به، وهو أرحم الراحمين وأرحم بعبده من الوالدة بولدها، وإنما وقع عليه لحكمة وغاية محمودة يعلم الله أن عاقبتها حسنى لعبده المؤمن، ولا يشعر العبد بحسن عاقبتها إلا بعد انقضائها وزوالها وتحولها عنه، فالمحنة في حقيقتها قد تكون منحة، والبلاء في حقيقته قد يكون عافية، والمنع في حقيقته قد يكون عطاء، وذلك بالنظر لعواقبها في الدنيا والآخرة والعاقل من يرى ذلك.

وفي الحديث: " أن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه الطعام والشراب ".

وفي مناجاة موسى المأثورة عن وهب التي رواها الإمام أحمد في (كتاب الزهد): [يقول الله تعالى: إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مراتع الهلكة. وإني لأجنبهم سكونها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة وما ذلك لهوانهم علي ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالما موفرا لم تكلمه الدنيا ولم يطفئه الهوى].

[فهكذا الرب سبحانه لا يمنع عبده المؤمن شيئا من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه وأنفع له. وليس ذلك لغير المؤمن. فإنه يمنعه الحظ الأدنى الخسيس، ولا يرضى له به ليعطيه الحظ الأعلى النفيس.

والعبد لجهله بمصالح نفسه، وجهله بكرم ربّه وحكمته ولطفه، لا يعرف التفاوت بين ما منع منه وبين ما ادخر له. بل هو مولع بحب العاجل وان كان دنيئا، وبقلة الرغبة في الآجل وإن كان عليا. ولو أنصف العبد ربه، وأنّى له بذلك، لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها وأعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك، فما منعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا امتحنه الا ليصافيه، ولا أماته الا ليحييه، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه وليسلك الطريق الموصلة إليه] الفوائد لابن القيم.

- **قضاء الله كله خير:**

[فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيراً له، ساءه ذلك القضاء أو سَرَّه، فقضاؤه لعبده المؤمن المنع عطاء، وإن كان في صورة منع، ونعمة وإن كانت في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بلية، ولكن بجهل العبد وظلمه لا يعدّ العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذ به في العاجل وكان ملائماً لطبعه، ولو رزق من المعرفة حظاً وافراً لعدّ المنع نعمة والبلاء رحمة، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية] مدارج السالكين.

- **السجن تربية وعبادةٍ :**

فالسجن مثلاً وإن كان في ظاهره أنّه محنة وعذاب ومكروه وشرّ إلا أنّه في الحقيقة ليس بشرّ محض، بل فيه خير كثير، فهو كما يقال مدرسة يوسف عليه السلام يُربي فيه العبد نفسه، ويعود فيه إلى ربّه وسيده ومولاه بعد أن كان معرضاً عنه منشغلاً بالدنيا وزينتها وزخارفها،، وهو يحتسب كل ثانية يقضيها في سجنه أجراً، وقد يجد في نفسه داخل السجن قوة وثباتاً وسعادة لا يجدها في حياته أبداً

ففي السجن يتفرغ المسلم لعبادة ربّه بعد أن زالت عنه مشاغل الحياة الدنيا وتكاليف العمل، فيتدارك في أيام سجنه ما فاته أيام انشغاله خارج السجن، ولربما أقبل على الله في فترة محنته وسجنه بقلبه، وأناب إليه ورضي به، وامتلأ قلبه حباً له، وتعلقاً به، ورغبة فيما عنده، ورهبة منه، ولهجاً بذكره، وفرحاً وسروراً بمعرفته ما لم يكن يدركه وهو خارج سجنه، ولربما تمنى أحياناً لو طال سجنه حتى لا تنقطع حلاوة الإيمان من قلبه، ولربما تمنى لو عاد الى سجنه بعد أن خرج منه لما كان يجده من حلاوة الإيمان في سجنه.

[قال شيخ الإسلام ابن تيمة قدس الله روحه ذات مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنّتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان شيخ الإسلام يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير] مدارج السالكين.

وقد أخرج من سجنه علماً جماً رحمه الله.

فالسجن وإن كان مكروهاً إلا أنّه لا يخلو من فائدة ومحاب، فباطنه فيه الرحمة وظاهره فيه العذاب.

ولما أُدخل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى سجن القلعة تلى قوله تعالى: {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ [الحديد/١٣].

وقد مات في سجنه رحمه الله وهو صابر محتسب منشغل بذكر الله ومناجاته، فما ازداد بموته في عزلته إلا إمامة في الدين، وقبولاً بين العالمين، وثناءً من المؤمنين.

فما دام أن المسلم سُجن من أجل دينه، وفي سبيل مرضاة ربّه، فالسجن لا يخلو من محاب مع كراهة النفس له، ويكون على المسلم نعمة لا نقمة، وسعادة لا شقاوة، لأنه في ذات الله.

فذلك في ذات الإله وإن يشأ **** يبارك على أوصال شلو ممزع

فجميع ما يصيب العبد من بلاء ومحن ومصائب وكروب إمّا أن تكون لرفعة درجة وعلو منزلة " إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة فلم يبلغها بعمل ابتلاه الله في جسده أو ماله أو في ولده، ثم صبر على ذلك حتى يبلّغه المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل "، وإمّا أن تكون كفارة لذنب " ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة "، فإنّ الله عز وجل أكرم من أن يجمع على عبده المؤمن بلائين، بلاء في الدنيا بالمصائب والمكاره والشدائد، وبلاء في الآخرة بالعذاب.

- **ومنها: أن يطلع العبد على أسرار وألطاف ما كان ليدركها بغير البلاء:**

فإنّ الله عند المنكسرة قلوبهم. وهذه وغيرها خصال محمودة لو تفكر فيها العبد.

فالمرض مثلاً ليس مكروهاً دائماً ومن كل وجه، والآلام ليست مذمومة دائماً، فقد يكون خيراً للعبد أن يتألم، وربّ محبوب في مكروه، وربّ مكروه في محبوب. وربما تكون مصلحة العبد فيما يكره أضعاف أضعاف مصلحته فيما يحبّ، وربما يأتي النفع من الضرّ، وربما يأتي الخير من وراء الشر.

فما حدث لعائشة رضي الله عنها من إتهامها بالباطل في حادثة الإفك جعل عاقبته عليها حسنى. قال الله تعالى: {لا تحسبوه شرّاً لكم بل هو خيرٌ لكم}، وما قد يحدث في القتال من زهق للإرواح وإضاعة للمال وغيره مما تكرهه النفس قد يكون فيه الخير لعدم علمنا بعواقب الأمور. قال الله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة/٢١٦].

(في هذه الآية عدّة حِكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا عَلمَ أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم

ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة، لعدم عِلْمه بالعواقب، فإنّ الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد) الفوائد لابن القيم.

وما يقع من كره الزوج لزوجته قد يكون فيه خير كثير إن هو صبر عليها، قال الله تعالى: {فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء/١٩].

قال العلامة ابن عاشور-رحمه الله-: [وهذه حكمة عظيمة، إذ قد تكره النفوس ما في عاقبته خير فبعضه يمكن التوصّل إلى معرفة ما فيه من الخير عند غوص الرأي. وبعضه قد علم الله أنّ فيه خيراً لكنّه لم يظهر للناس. قال سهل بن حنيف، حين مرجعه من صفّين «اتَّهِموا الرأي فلقد رأيتُنا يَوم أبي جندل ولو نستطيع أن نردّ على رسول الله أمْره لردَدْنا. واللَّه ورسولُه أعلم». وقد قال تعالى، في سورة البقرة {وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم} [البقرة: ٢١٦].

والمقصود من هذا: الإرشادُ إلى إعماق النظر وتغلغل الرأي في عواقب الأشياء، وعدم الاغترار بالبوارق الظاهرة. ولا بميل الشهوات إلى ما في الأفعال من ملائم، حتّى يسبره بمسبار الرأي، فيتحقّق سلامة حسن الظاهر من سُوء خفايا الباطن.](التحرير والتنوير: ٣ / ٣٦٨)

(فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده، ويحب الموادعة والمتاركة، وهذا المحبوب شر له في معاشه ومعاده) الفوائد لابن القيم.

- **والله يعلم وأنتم لا تعلمون:**

ومنعه سبحانه وتعالى عن عبده المؤمن بعض ما يتمناه ويرغب فيه، ربما كان رحمة به وإحساناً إليه لا بخلاً منه عليه، بل هو بلا شك أحسان نظر منه سبحانه وتعالى، وإتمام نعمة على عبده المؤمن، لأنه سبحانه اعلم بعواقب الأمور، فلربما أتت المنن في صورة المحن، وربما أتت المحن في صورة المنن، وربما أتت الفوائد من جهة الشدائد، وربما أتت الشدائد من جهة الفوائد، وربما أتت المسار من حيث المضار، وربما أتت المضار من حيث المسار، فالله يعلم ونحن لا نعلم.

والطاعون مثلاً، كان عذاباً يبعثه الله على من يشاء من عباده، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنّ هذا الوجع والسقم رجز عُذب به بعض الأمم قبلكم "، ثم جعله الله رحمة للمؤمنين، كما قال صلى الله عليه وسلم: " فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنّه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد ".

فالمحاب كثيرة في المكاره لو تدبرها العبد وتبصر في فوائدها.

وللسيوطي رحمه الله كتاب (الأرج في الفرج) ذكر فيه الكثير من كلام أهل العلم بما يبرهن على أن المحاب كثيرة في المكاره، وإن المصائب تكشف عن عجائب لا يدركها المبتلى والمصاب إلا بعد انقضائها وتكشفها وانجلائها عنه.

قال الحسن رحمه الله: (لا تكرهوا الملمات الواقعة، فلربّ أمر تكرهه فيه نجاحك، ولربّ أمر تحبه فيه عطبك).

فلربما امتحن الله عبده المؤمن بمحنة ليخلصه بها من هلكة، فتكون تلك المحنة في حقه أجل من نعمة لحسن عاقبتها.

(فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها) الفوائد لابن القيم.

- **وربما صحت الأجساد بالعلل:**

يُحكى أن رجلاً كان مقعداً في فراشه لا يستطيع أن يتحرك منه عضو واحد، لا يداه ولا رجلاه، وفي ذات يوم وهو طريح الفراش على حالته تلك في الغرفة وحده، نزلت عليه عقرب من فوق السطح، ورآها، ولكن لا يستطيع أن يدفعها عن نفسه حتى جاءت إلى عند رأسه فلدغته، فقام بعدها من فراشه يمشي على رجليه ويحرك يديه، وربما صحت الأجساد بالعلل.

ربّ أمر تقيه **** جرّ أمراً ترتضيه

خفي المحبوب منه **** وبدا المكروه فيه

- **فوائد في المصائب والمحن والابتلاءات:**

لا تخلو المصائب والمحن والابتلاءات التي تقع على العبد المؤمن من أن تكون فيها فوائد جمّة تعود عليه بالخير في دنياه وآخرته، ومن هذه الفوائد والمحاب التي في مثل هذه المكاره:

١- أنّها دليل على محبة الله لعبده: فإنّ الله عز وجل إذا أحبّ قوما ابتلاءهم، كما قال صلى الله عليه وسلم: " إنّ الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم "، وكما قال صلى الله عليه وسلم: " من يُرِدِ الله به خيراً يُصِبْ منه "، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد شرا أمسك عليه ذنوبه حتى يوافيه يوم القيامة ".

٢- أنّها تمحص العبد وتطهره من الذنوب: فما من نصب ولا وصب، ولا حزن، ولا أذى، ولا غمّ، يصيب المسلم إلا كفر الله به من خطاياه، وطهره به من ذنوبه، وحط عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها في الخريف، فيصير يمشي على الأرض وما عليه خطيئة، ويلقى الله عز وجل وما عليه خطئية. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا حزن، ولا أذى ولا غمّ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه ". وقال صلى الله عليه وسلم " أو ما علمت أن المؤمن يشدد عليه ليكون كفارة لخطاياه ". وقال صلى الله عليه وسلم " اذا اشتكى المؤمن أخلصه الله كما يخلص الكير خبث الحديد".

٣- أنّها تعرض العبد للثواب عليها: فإذا أصابت العبد المصيبة وصبر عليها عوضه الله بها ثواباً في الآخرة، قال الله تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ *سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد/٢٣، ٢٤]}،وقال سبحانه:

{إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ}[المؤمنون/١١١]، وقال عز وجل: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [الإنسان/١٢]

وعن عطاء بن ابي رباح قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنّة؟ فقلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إنّي أصرع، وإنّي أتكشف. فادع الله تعالى لي، قال: " إن شئت صبرت ولك الجنّة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك "، فقالت: أصبر، فقالت: إنّي أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها.

فعظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صاحبَه الصبر والرضى بالقضاء.

٤- أنّ فيها تربية للنّفس وكسر جموحها عن غيها حتى لا تطغى بنعمة ربها: قال الله تعالى: {كلا إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغني}، فالمصائب والمحن والابتلاءات كالمراهم للأمراض، تُطهر البدن وتقوي القلب، وكالدباغ للجلد يستخرج من العبد قسوته ويصيره إلى حالة يمكن الاستفادة منه.

٥- صرف ما هو أعظم منها: فالله عز وجل قد يبتلي العبد بمصيبة ليصرف ويدفع بها عنه ما هو أعظم منها.

٦- أنّ فيها تنبيهاً للعبد من الغفلة: فالمحن والمصائب تنبه العبد من غفلته، وترجعه إلى الله عز وجل، وتقربه إليه، وتزيده تعلقاً به سبحانه وتعالى، مع ما يصحبها من كثرة التضرع والالتجاء إلى الله، والتذلل والانكسار بين يديه سبحانه وتعالى عقب نزول البلاء والمحن به.

(فهو سبحانه أعلم بمواقع الفضل، ومحال التخصيص، ومحال الحرمان. فبحمده وحكمته أعطى، وبحمده وحكمته حرم، فمن ردّه المنع إلى الافتقار إليه، والتذلل له، وتملقه، انقلب

المنع في حقه عطاء، ومن شغله عطاؤه، وقطعه عنه انقلب العطاء في حقه منعاً، فكل ما شغل العبد عن الله فهو مشؤوم عليه، وكل ما رده إليه فهو رحمة منه) زاد المعاد.

فالقلوب لو تركت في عافية دائمة لربما غلبت عليها الغفلة، وضعف فيها نور الإيمان وجذوته، والمحن توقظها من غفلتها.

(فإن القلوب يخالطها بغلبات الطبائع، وميل النفوس، وحكم العادة، وتزيين الشيطان، واستيلاء الغفلة ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى، فلو تركت في عافية دائمة مستمرة، لم تخلص من هذه المخالطة، ولم تتمحص منه، فاقتضت حكمة الله أن قيض لها من المحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء، إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خيف عليه منه الفساد والهلكة) زاد المعاد

فالمحن والمصائب والابتلاءات تجعل العبد يرجع إلى ربّه، ويخضع له، ويتذلل بين يديه، ويزيد قرباً إلى الله وتعلقاً به.

(ولايمنع عبده حقاً هو للعبد، فيكون بمنعه ظالماً له، بل إنّما منعه ليتوسل إليه بمحابه ليعبده، وليتضرع إليه، ويتذلل بين يديه، ويتملقه، ويعطي فقره إليه حقه، بحيث يشهد في كل ذره من ذراته الباطنة والظاهرة فاقة تامة إليه على تعاقب الأنفاس، وهذا هو الواقع في نفس الأمر، وإن لم يشهده العبد، فلم يمنع الربّ عبده ما العبد محتاج إليه بخلاً منه، ولا نقصاً من خزائنه، ولا استئثاراً عليه بما هو حق للعبد. بل منعه ليرده إليه، وليعزه بالتذلل له، وليغنيه بالافتقار إليه، وليجبره بالانكسار بين يديه، وليذقه بمرارة المنع حلاوة الخضوع له، ولذة الفقر إليه، وليلبسه خلعة العبودية، ويوليه بعزله أشرف الولايات، وليشهد حكمته في قدرته، ورحمته في عزته، وبره ولطفه في قهره، وأن منعه عطاء، وعزله تولية، وعقوبته تأديب، وامتحانه محبة وعطية، وتسليط أعدائه عليه سائق يسوقه به إليه) زاد المعاد.

٧- أنّها تستخرج الدعاء:

فسبحان من استخرج الدعاء بالبلاء، يُسلط البلاء ليُرفع إليه الدعاء، وكلمّا اشتدّ بالعبد البلاء وعظم وتناهى، زاد التجاؤه إلى الله، وزاد تضرعه بين يديه، وأكثر من الدعاء، ومتى استبطأ رَفْعَ البلاء مع كثرة الدعاء رجع على نفسه باللائمة وحاسبها، وقال لها إنّما أُتيت من قبلك يا مأوى كل شرّ، ولو كان فيك خير لأجبت. وهذا اللوم أحبّ إلى الله من كثير من الطاعات، فإنّه يوجب إنكسار قلب العبد لسيده ومولاه، ويعترف بتقصيره في حق ربه وخالقه، ويرى أنّه أهل لما نزل به من بلاء، وعندها تُسرع إليه إجابة الدعاء، ويحوز القرب من سيده ومولاه.

يُحكى أنّه كان في بني إسرائيل عابد عبد ربّه سبعين سنة، ثم دعا الله في حاجة من حوائجه يريد قضاءها، فلم يقضها الله له، فرجع إلى منارته، وقال: لو علم الله أنّ فيّ خيراً لقضى لي حاجتي. فبعث الله له ملكاً فقال له: إنّ الله يقول لك لومُكُ نفسَكَ أحبّ إليّ من عبادة سبعين سنة، وحاجتك قد قضيتها لك الآن بلوم نفسك.

- **التوفيق.. والخذلان:**

(وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه لعبده، وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكلك الله الى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد، فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه. فمتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضلّه عن المفتاح بقي باب الخير مرتجا دونه) الفوائد لابن القيم.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنّي لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء، فاذا أُلهمت الدعاء فإن الاجابة معه.

٨- أنّها تذكر بالنعمة:

فنعم الله على عبده ولا تُحصى، وما عافى أكثر مما ابتلى، وما أبقى أكثر مما أخذ.

فإن حرمك مرة فكم من مرة أعطاك، وإن أسقمك يوماً فكم من أيام عافاك، بل ربما ما تعدّه نقمة هو في حقيقته نعمة ورحمة من الله. فكم في المرض من أجر، من تكفير سيئة ورفع درجة وعلو منزلة، وكم في الضرّ من نفع، وكم في المحن من منح، " وعسى أن

تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً "، فوا عجباً ممن يعدّ النقم وينسى النعم، وربما لا يعرف العبد مقدار النعمة التي هو فيها إلا متى ما فقدها. فإذا رجعتْ نعمة الله عليه عرف فضلها وخيرها، فزاد في شكره لله عز وجل، وأدى حقها.

٩- أنّها يُنال بها عطف الناس:

فإذا أصابت العبد مصيبة أو نزل به بلاء نال عطف الناس عليه، وازداد حبهم له، وكثر دعاؤهم له بالنجاة والخلاص وتفريج الكرب وزوال المصاب، فينال بهذا الدعاء خيراً كثيراً في مقابل ما أصابه من بلاء ومحن.

١٠- أنّها سبب في زيادة الخير والأجر والثواب والعمل الصالح والإقبال على الله بالطاعات:

فالمصائب تنتج على المؤمن خيرا كثيرا، وتجر إلى أجر عظيم وزيادة في الأعمال الصالحات، من ذكر، وصلاة، وصيام، وتلاوة لكتاب الله، ودعاء، وتوبة صادقة، وغير ذلك.
فالسجن مثلاً مع أنّه مكروه ولكن لا يخلو من فوائد جمّة ربما لا يتحصل عليها المسلم في خارج السجن.

- **تجربة واقعية:**

ولقد رأيتُ بنفسي عندما كنت في السجن ما يكون عليه العبد المبتلى من ازدياد في العبادات والطاعات، وصدق في الالتجاء الى الله، وحفظ للقران، ومعرفة الرجال، ومراجعة النفس ومحاسبتها على ما مضى من أخطاء ومن تقصير في جنب الله، رأيت كل هذا وأكثر منه مع الكثيرين ممن سُجن معي، وسمعت بمثل هذا كثيراّ عن إخوة سجنوا في سجون عدّة، بل أكاد اجزم أنّه ما من سجن ضم الشباب المسلم إلا كان هذا هو الظاهرة البارزة فيه، بل لقد سمعت عن الكثير من العصاة العتاة المجاهرين بالمعصية المحادين لدين الله المبارزين أولياء الله بالعداوة ممن أراد الله بهم الخير، سجنوا مع الشباب المسلم، فخرجوا من سجونهم إخوة دعاة صادقين ومجاهدين. حتى أن كثيراً من الحكومات انتبهت لهذا، ففصلت الشباب المسلم عن العصاة من أصحاب الجرائم الكبيرة والصغيرة لقوة تأثير

الإخوة عليهم وردهم لطاعة ربهم. بل لربما انتفعت الكثير من الجماعات الإسلامية في تربية أفرادها في داخل السجون حيث يلتقي الدعاة من قيادات الجماعة مع أفراد الجماعة، فتكون فترة سجنهم كالدورة التربوية لهم، فيخرجون وهم أصلب عودا، وأقوى شكيمة، وأكثر علما، وأشد رغبة واندفاعا وحبّاً لتبليغ الدين ونصرة الاسلام والمسلمين.

- **ميلاد جديد:**

ويُحدث أحد المشايخ ممن سُجن مع الكثير من أعضاء نظام صدام ويقول أن بعضهم أصبح يصلي، وبعضهم نادم على ما كان منه من طغيان وجبروت وعداوة لدين الله وحرب لله ولرسوله وللمسلمين، وأنّه لم يعرف الاسلام إلا الآن، ويَعد أنّه متى ما خرج من السجن سيقدم خدماته لهذا الدين، ويقول كانوا يحرصون كل الحرص على الاستماع الى حديثي عن الاسلام في فترات الخروج الى الساحة العامة، وإذا كنت مشغولا بالقراءة جاءوا إليّ يطلبون الخروج معهم لأنّها هي الفرصة الوحيدة التي ألتقي فيها بهم، ثم تكون بعدها العودة الى الزنازين الانفرادية.

وحدثني أحد الإخوة الدعاة في أحد البلاد الأفريقية التي يُمثل المسلمون فيها أقل من عشرين بالمئة، يقول ازداد عدد المسلمين عندنا في السنوات العشر الأخيرة بشكل سريع ولافت للنظر بسبب أننا كنا ندخل السجون عمداً من أجل دعوة المسجونين إلى الإسلام، لأنهم في السجن أكثر إقبلا للتعرف على الإسلام وتقبلا لدين الله والدخول فيه، مع ما كنا نجد في السجن من تفرغ لنا ولهم فيستمعون لدعوتنا ويقبلون علينا فيخرج الكثير منهم مسلمين بعد أن كانوا نصارى ولا دينيين.

قال الله تعالى: {كنّتم خير أمّةٍ أُخرجتْ للنّاس}.

قال أبو هريرة رضي الله عنه في تفسير هذه الاية: (خير النّاس للنّاس، يأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام) رواه البخاري.

وصدق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حيث يقول: " عجب الله عز وجلّ من قوم يدخلون الجنّة في السلاسل " رواه البخاري.

- **أطلقوا ثمامة!**

فكم ممن أسلم من الكفار بعد أن وقع في الأسر لّما رأى سماحة الإسلام وعدله. منهم ثُمَامَة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة رضي الله عنه وذلك لّما أسرته سرية محمد بن مسلمة في الطريق حين قفلت راجعة غانمة من غارة على بطن لبني بكر بن كلاب. وكان ثمامة قد خرج متنكراً لاغتيال النبي صلى الله عليه وسلم بأمر مسيلمة الكذاب، فأخذه المسلمون، فلما جاءوا به ربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "ما ذا عندك يا ثمامة ؟ " فقال : عندي خير يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تعط منه ماشئت، فتركه، ثم مرّ به مرة أخري؛ فقال له مثل ذلك، فرد عليه كما رد عليه أولاً، ثم مر مرة ثالثة فقال ــ بعد ما دار بينهما الكلام السابق : " أطلقوا ثمامة "، فأطلقوه، فذهب إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم جاءه فأسلم، وقال : والله، ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض إلي من دينك، فقد أصبح دينك أحب الأديان إليّ، وإنّ خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمره أن يعتمر، فلمّا قدم على قريش قالوا : صبأت يا ثمامة، قال: لا والله، ولكني أسلمت مع محمد صلى الله عليه وسلم، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكانت يمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده، ومنع الحمل إلى مكة، حتى جهدت قريش، وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامـــة يخلي إليـــه حمل الطعـــام، ففعـــل رســـول الله صلى الله عليه وسلم .

فكان وقوعه رضي الله عنه في الأسر سبباً في هدايته ودخوله في الإسلام.

- **اسألوا الله العافية:**

ومع كل ما يكتسبه العبد المؤمن من الخير بسبب بلائه ومحنته إلا أنه مأمور بأن يسأل الله تعالى العافية، وأن يتعوذ بالله من الفتن، وأن يصرف عنه قهر الرجال وشماتة الأعداء، فعن العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله علمني شيئا أسأل الله به فقال:[يا عباس سل الله العافية ثم مكثت قليلا ثم جئت فقلت علمني شيئا أسأل الله به يا رسول الله فقال يا عباس يا عم رسول الله سل الله العافية في الدنيا والآخرة]رواه أحمد والترمذي، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح:[اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي]رواه أبو داود، وعن أبي بكر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [سلوا الله العفو والعافية فإن أحدا لم يعط بعد اليقين خيرا من العافية]رواه أحمد، والترمذي، وغير ذلك من الأحاديث المشهورة المعلومة، ولهذا شرع لمن يرى رجلاً متبلىً أن يحمد الله على ما هو فيه من العافية وأن صرف عنه ما ابتلي به غيره، فعن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:[من رأى صاحب بلاء فقال الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا لم يصبه ذلك البلاء] رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

ومن دعاء إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه: {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الممتحنة/٥]، ومما دعا به قوم موسى عليه السلام: {فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [يونس/٨٥، ٨٦]

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:[تعوذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء.]متفق عليه.

وعن عبد بن عمر قال كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم:[اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع سخطك.] رواه مسلم.

وهذا كله قبل أن يترل به البلاء، فليكثر من دعاء الله تعالى بأن يصرفه عنه، ويحفظه منه، ويديم عليه نعمة العافية، فإذا حصل البلاء فعندها عليه أن يصبر ويحتسب ويعلم أن ما

أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ولا يجزع، ولا يقنط من رحمة الله، وهذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم بعض غزواته: [يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا]متفق عليه.

ولقاء العدو لا شك أنه أحد صور البلاء والمحنة والاختبار كما قال تعالى: {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} [محمد/٤].

وكما قال سحرة فرعون بعد إيمانهم لما استيقنوا تنكيله بهم وتنفيذه لما هددهم به: {وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آَمَنَّا بِآَيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} [الأعراف/١٢٦].

وموسى عليه السلام أرشد قومه إلى الاستعانة بالله والصبر لتكون لهم العاقبة: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف/١٢٨]

فنسأل الله العافية الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

- **بمَ يُخَفْفُ البلاء؟**

هناك عدّة أمور متى ما استحضرها العبد المؤمن وتذّكرها وتدبرها وعمل بها خفت عنه الابتلاءات والمحن والمصائب ومن هذه الأمور:-

١- قوة الإيمان:

مما يخفف البلاء عن العبد قوة إيمانه بالله سبحانه وتعالى ومعرفته لربّه حق المعرفة، وهو من أعظم هذه الأمور.

قال الله سبحانه وتعالى: {إنّ الله يُدافع عن الذين آمنوا}، وفي القراءة الأخرى " إنّ الله يَدفع "، فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله، فمن كان أكمل إيماناً كان دفع الله تعالى عنه ودفاعه عنه أعظم، ومن نقص إيمانه نقص دفع الله تعالى ودفاعه عنه بحسبه، ولأن قوة الإيمان تُضفي على العبد قوة يتحمل معها كل أنواع البلاء والمحن والمصائب،

كالصخرة التي ينكسر كل ما يقع عليها ويصدمها، بل إنّه ليجد بقوة إيمانه لها حلاوة وتلذذ كما يجد غيره حلاوة العافية ويتلذذ بها.

ولأن المؤمن كلما ارتقى في درجات الإيمان وصعد على سلمه، نال من معية الله تعالى الخاصة بحسب ذلك، فيرى تأييد الله ومعونته وحفظه ملازمة له، كما قال تعالى: {وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال/١٩]، وقال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}[النحل/١٢٨]، وقال سبحانه: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال/٤٦]، فالناس في هذه المعية ليسوا سواء، بل ينال العبد منها بقدر ما معه من الإيمان والإحسان والصبر والتقوى والصلاح، ومن كان الله معه فلن يغالبه أحدٌ ولو اجتمع عليه مَن في السماوات والأرض

ولعل من حِكم الله تعالى أن يكون أشد الناس بلاء أعظمهم إيماناً، وذلك –والله أعلم- لعلم الله تعالى بأن ما هم فيه من الإيمان واليقين والمعرفة الحقة بربهم تجعلهم يستسهلون ما يترل بهم من البلاء وربما يستلذونه ويزدادون به إيماناً ويقيناً كما قال سبحانه: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا [الأحزاب/٢٢]، وحال الصحابة رضوان الله عليهم في هذه المحنة والزلزلة كحال نبي الله موسى عليه السلام حينما عاين قومه عدو الله فرعون وهو يقفو أثرهم ويشتد في طلبهم، وقد سدت أمامهم المنافذ، فالبحر أمامهم والعدو خلفهم وعندها تيقنوا الهلكة وسقط في أيديهم: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء/٦١، ٦٢]

(فالإيمان الجازم إذا خالطت بشاشته القلوب يزن الجبال ولا يطيش، وإنّ صاحب هذا الإيمان المحكم، وهذا اليقين الجازم يرى متاعب الدنيا مهما كثرت وكبرت وتفاقمت واشتدت يراها في جانب إيمانه، طحالب عائمة فوق سيل جارف جاء ليكسر السدود المنيعة، والقلاع الحصينة، فلا يُبالي بشيء من تلك المتاعب، أمام ما يجده من حلاوة إيمانه، وطراوة إذعانه، وبشاشة يقينه) الرحيق المختوم.

٢ – تقوى الله:

وهي خير زاد، وأفضل عتاد، فمن كان مراقباً لله في السر والعلانية، حافظاً حدوده في الرضا والغضب، مستمسكاً بشريعته في الشدة والرخاء، متقياً له على كل حال، فإن الله لا يخذله وهو أحوج ما يكون إليه، فتقوى الله تكون سبباً في تخفيف البلاء والمحن بل ورفعها، وسبباً في تفريج الكروب.

يقول الله تعالى: {ومن يتق الله يجعل له من أمره يُسراً}.

وقال تعالى: {ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب}.

وقال تعالى: {إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاً}.

وقال على لسان نبيه الله يوسف عليه السلام بعد انتهاء محنته الطويلة وانكشاف الغمة: {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}[يوسف/٩٠]

فتقوى الله عامل مهم في تخفيف المصائب والمحن عن العبد المؤمن، وعامل مهم لرفع البلاء ودفعه عنه، وعامل مهم لجعل الله له من أمره يسرا وفرجا ومخرجا، ولو أنّ كل الناس اخذوا بها لكفتهم.

٣- الرضا بالقضاء والقدر:

ومما يخفف البلاء على العبد إيمانه وعلمه ويقينه بأن هذا البلاء هو بقضاء سابق وقدر محتوم، وأنّه مكتوب عليه في كتابه من قبل أن يخرج لهذه الدنيا، فالقضاء مفروغ، وكل مقدور كائن.

قال الله تعالى: {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها}.، وقال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [التغابن/١١] قال ابن مسعود –رضي الله عنه-: [هو الرجل تصيبه المصيبة يعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم]

وبالإيمان بالقدر وبما شرع الله يكتمل الإيمان، وتثبت قدم المرء على الإسلام.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبيّ صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: [يا غلام إنّي أعلمك كلماتٍ:

احفظِ اللهَ يحفظكَ، احفظِ اللهَ تجده تُجاهَكَ، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، جفتِ الأقلامُ ورفعتِ الصُحفُ]رواه أحمد، والترمذي.

والإيمان بالقدر خيره وشره والرضا به هو علامة على صدق إيمان العبد بربّه كما قال صلى الله عليه وسلم: " لايؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ".

فأساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وما دام أن القضاء مفروغ، وكل مقدر كائن، وأن هذا البلاء النازل بقدر مكتوب، ولم يكن ليخطئ العبد، فما للجزع من المصائب والمحن والابتلاءات وجه، بل ما يُنّجي المسلم إلا التسليم والرضا بما كتبه الله وقدره عليه.

ومن آمن ورضي بما قدره الله وقضاه عليه عاش حياة هنيئة آمنة مطمئنة مستقرة، لا تزعزعه الفتن، ولا توهنه المحن ولا المصائب.

وقد حاج آدم موسى فيما وقع فيه من الأكل من الشجرة والإخراج من الجنّة.

وهو حديث رواه الجماعة إلا ابن ماجه من عشر طرق

قال ابن كثير رحمه الله: [ومن كذب بهذا الحديث فمعاند ؛ لانه متواتر عن أبى هريرة رضى الله عنه، وناهيك به عدالة وحفظا وإتقانا، ثم هو مروى عن غيره من الصحابة كما ذكرنا.](قصص الأنبياء: ١ / ٣٧).

ففي البخاري ومسلم عن أبي هريرة –رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [حاج موسى آدم عليهما السلام فقال له: أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنَّة وأشقيتهم.

قال آدم: " يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن يخلقني، أو قدره علي قبل أن يخلقني "؟.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فحج آدم موسى "].

وفي مسند الامام أحمد: [احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، أغويت الناس وأخرجتهم من الجنَّة ". قال: فقال آدم: " وأنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه تلومني على عمل أعمله، كتبه الله علي قبل أن يخلق السماوات والأرض "؟ قال فحج آدم موسى ".]

ورواه ابن أبي حاتم بلفظ " احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى، قال موسى: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك؟ قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجيا؟ فبكم وجدت الله كتب التوراة؟ قال موسى: بأربعين عاماً ، قال آدم: فهل وجدت فيها: " وعصى آدم ربه فغوى "؟ قال: نعم. قال أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة "؟ قال: قال رسول الله صلى اللَّه عليه وسلم: " فحج آدم موسى ".

قال ابن كثير رحمه الله: [ومدار معظمها في " الصحيحين " وغيرهما على أنّه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنَّة، فقال له آدم: أنا لم أخرجكم، وإنّما أخرجكم الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة، والذي رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق، هو الله عز وجل، فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إلى كثر من أني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها، وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي، فأنا لم أخرجكم ولا نفسي من الجنَّة، وإنّما كان هذا من قدر الله وصنعه، وله الحكمة في ذلك. فلهذا حج آدم موسى](قصص الانبياء: ١/٣٧).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله-: [وآدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظنا أن المذنب يحتج بالقدر فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل، ولو كان هذا عذرا لكان عذرا لإبليس وقوم نوح وقوم هود وكل كافر، ولا موسى لام آدم أيضا لأجل الذنب فإن آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى، ولكن لامه لأجل المصيبة التي لحقتهم بالخطيئة ولهذا قال: فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فأجابه آدم أن هذا كان مكتوبا قبل أن أخلق

فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدرا وما قدر من المصائب يجب الاستسلام له فإنه من تمام الرضا بالله ربا.

وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب فيتوب من المعائب ويصبر على المصائب قال تعالى: {فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك}](الفتاوى الكبرى: ٥ / ١٥٤).

إذا عُلم هذا. فإذا نزلت النازلة وحلّت المصيبة تَذكر أنّه إنّما وقع ذلك بإرادة الله ومشيئته فلا وجه للجزع عندئذ،كما قال سبحانه وتعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آَتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [الحديد/٢٢، ٢٣]

قال العلامة السعدي –رحمه الله- [وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير، وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم](تفسير السعدي: ١ / ٨٤٢).

فكل بلاء ومصيبة ومحنة بقضاء وقدر، ولا يُنجي حذر من قدر،وإذا جاء التقدير لم ينفع التدبير.

أيَّ يوميَّ من الموت أفِرّْ **** يومَ لا قُدِّرَ أم يوم قُدِرْ

يومَ لا قُدِّرَ لا أحذره **** ومن المقدور لا يَنْجُو الحَذِرْ

وليكن علمه راسخاً في أن كل قضاء يقضيه الله على العبد المؤمن هو خير له سواء كان سراء أو ضراء.

فعن صهيب –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر وكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له]رواه أحمد، ومسلم.

فإذا أصابته الضراء فليصبر وليستعين بالله، وليكثر من هذا الدعاء (اللهم رضني بقضائك حتى اعلم أنّ ما أصابني لم يكن ليخطئني، وما أخطأني لم يكن ليصيبني)، فإنّ الخير كل الخير في الرضا بالمقدور.

فإن استطاع العبد أن يرضى بقدر الله عليه فهو الأجدر والأكمل والأفضل، وهو المستحب في حقه، وإن لم يستطع الرضا فليصبر فإن الصبر معول المؤمن وفيه كل الخير، والفرج يأتي مع الصبر عليه.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله [الرضا بالمصايب كالفقر والمرض والذل، فهذا الرضا مستحب في أحد قولي العلماء، وليس بواجب، وقد قيل إنّه واجب، والصحيح أن الواجب الصبر كما قال الحسن: الرضا غريزة، ولكن الصبر معول المؤمن. وقد رُوي في حديث ابن عباس أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خير كثير ") الفتاوى الكبرى.

وقال أيضاً: [والصبر واجب باتفاق العلماء، وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله، والرضا قد قيل أنه واجب، وقيل هو مستحب وهو الصحيح وأعلى من ذلك أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها حيث جعلها سببا لتكفير خطاياه ورفع درجاته وإنابته وتضرعه إليه وإخلاصه له فى التوكل عليه ورجائه دون المخلوقين](مجموع الفتاوى: ١١ / ٢٦٠).

وإذا أنعم الله على العبد بنعماء، فليشكر الله عليها، ويحمده على ما منَّ به من نعمة وفضل ورحمة، وليقل إذا رأى مبتلى (الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك الله به، وفضلني علي كثير ممن خلق تفضيلاً) فإنه لن يصيبه ذلك البلاء.

وليعلم العبد المؤمن أن ما كتبه الله على عبده من بلاء ومصائب ومحن واقعة لا محالة على الراضي بها، وعلى الساخط عليها. ولكن من رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط والعياذ بالله. وإن رضي مضى قدر الله وأمره وحكمه عليه، وكتب عند الله مأجوراً. وإن

سخط وجزع مضى قدر الله وأمره وحكمه عليه، وكتب عند الله مَوْزوراً، فلا خروج للعبد عمّا قدره الله عليه.

[ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه] الفوائد لابن القيم.

ومن رضي بما قدره الله عليه من مصائب ومحن وابتلاءات خف عليه تحمل المصيبة والمحنة والبلاء، وتحولت النقمة في حقه إلى نعمة، والمحنة إلى منحة، والبلية إلى عطية،، ومن سخط سخط الله عليه.

والرضا بقدر الله وقضائه هو من الرضا بالله رباً، فإذا رضي العبد بما قسمه الله له وقدره وكتبه عليه من خير وشر، ومن محنة ونعمة، ومن بلاء وعافية، ومن مسرة ومضرة، فإنه قد رضي ربوبية الله:

فالعبد المؤمن الراضي بالله رباً يرضى بما يفعله به سيده ومولاه وخالقه ومدبر أمره يعطيه أو يمنعه، يعافيه أو يبتليه، ومن لم يرض بقضاء الله وقدره عليه كان إيمانه بربوبيته ناقصاً.

قال بعض العارفين:[ارض عن الله في جميع ما يفعله بك، فإنّه ما منعك إلا ليعطيك، ولا ابتلاك إلا ليعافيك، ولا أمرضك إلا ليشفيك، ولا أماتك إلا ليحييك، فإياك أن تفارق الرضى طرفة عين فتسقط من عينه].

وقيل ليحي بن معاذ رحمه الله: متى يبلغ العبد مقام الرضى؟

قال: [إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربّه، فيقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت].

وانبه هنا إلى أن الرضا بالمقدور المكروه لا ينافي التألم وكراهة النفس له، فهو كرضى المريض بشرب الدواء الكريه، ورضى الصائم بألم الجوع في اليوم الشديد الحر طمعاً ورجاءً في نيل الثواب وعظيم الأجر، وكرضى المجاهد بما يصيبه من ألم الجراح في سبيل الله في مقابل ما يحصل عليه من عظيم الأجر وحسن الثواب. فمن رضي بما يصنعه الله به، وبما يختاره له، وبما يقدره عليه، وإن كان المقدور مر المذاق خفّ عليه حمله، وانقلبت المحنة في حقه منحة، والنقمة نعمة، ومن سخط تضاعفت عليه الابتلاءات والمحن والمصائب وزادت

شدها عليه، وفُتِحَ عليه باب الهمّ والغمّ والحزن، وشتات القلب، وسوء الحال، وقد تذهب نفسه حسرات.

فالرضا بالمقدور من سعادة ابن آدم، والتسخط من أسباب شقاوته.

- **ستة مشاهد:**

قال ابن القيم رحمه الله: [اذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ستّة مشاهد:

الأوّل: مشهد التوحيد، وأنّ الله هو الذي قدّره وشاءه وخلقه، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الثاني: مشهد العدل، وأنّه ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه.

الثالث: مشهد الرحمة، وأنّ رحمته في هذا المقدور غالبة لغضبه وانتقامه، ورحمته حشوه

الرابع: مشهد الحكمة، وأن حكمته سبحانه اقتضت ذلك، لم يقدّره سدى ولا قضاه عبثا.

الخامس: مشهد الحمد، وأنّ له سبحانه الحمد التام على ذلك من جميع وجوهه.

السادس: مشهد العبوديّة، وأنّه عبد محض من كل وجه تجري عليه أحكام سيّده وأقضيته بحكم كونه ملكه وعبده، فيصرفه تحت أحكامه القدريّة كما يصرفه تحت أحكامه الدينيّة، فهو محل لجريان هذه الأحكام عليه] (الفوائد٣٢).

4- الصبر: -

قال الإمام الجرجاني في تعريفه للصبر: [هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله، لأن الله تعالى أثنى على أيوب، صلى الله عليه وسلم، بالصبر بقوله: "إنا وجدناه صابراً " مع دعائه في رفع الضر عنه بقوله: " وأيوب إذا نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين "، فعلمنا أن العبد إذا دعا الله تعالى في كشف الضر عنه لا يقدح في صبره](التعريفات: ١ / ٤٢)

وقد أمر الله في كتابه الكريم بالصبر، وحث عليه، ورغب فيه، وأثنى على أهله، ووعدهم بجزيل الثواب، وأن يوفوا أجرهم بغير حساب، والصبر أنواع، فمنه ما هو صبر على طاعة

الله، ومنه ما هو صبر عن معصيته، ومنه ما هو صبر على البلاء والمحنة التي تنزل بالعبد وهو المقصود هنا.

قال لقمان الحكيم في وصيته لابنه: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [لقمان/١٧]

فمما يخفف عن العبد ما نزل به من بلاء ومحن ومصائب التحلي بالصبر.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: [فالصبر لا يأتي إلا بالخير، ومن يتصبر يصبره الله، وبه يخف حمل المصيبة].

والصبر على أقدار الله مما أمرنا الله به وأوجبه علينا كما في قوله تعالى {فاصبر لحكم ربك}.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله (والصحيح أن الواجب الصبر كما قال الحسن: الرضا غريزة، ولكن الصبر معول المؤمن).

وقد أمر به النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة، وأوصى به أصحابه في مواطن عدّة، لأنه أنفع الأمور لهم في الدنيا بتخفيف المصائب عليهم، وأنفع الأمور لهم في الأخرة بحسن الجزاء {إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}.

فأمر به أصحابه فقال: " إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض ".

وأمر به المرأة التي وجدها تبكي عند قبر، فقال لها " اتقي الله واصبري ".

ووصى به آل ياسر لّما مرّ عليهم والكفار يعذبونهم فقال: " صبراً أل ياسر فإن موعدكم الجنّة".

ووصى به ابنته لما أرسلت إليه أنّ ابنها يحتضر تطلب منه أن يشهده، فأرسل إليها يقرئها السلام ويقول لها: " إنّ لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمّىً، فلتصبر ولتحتسب ".

[وأمر النبي صلى الله عليه وسلم المصاب بأنفع الأمور له وهي الصبر والاحتساب. فإن ذلك يُخفف مصيبته، ويوفر أجره، والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة، ويُذهب الأجر] مدارج السالكين.

وقد وصى به لقمان ابنه فقال {واصبر على ما أصابك إنّ ذلك من عزم الأمور}.

ووصى به الغلام من أصحاب الأخدود أمه لمّا تقاعست أن تقع في النار التي خدت لهم فقال لها: " يا أُماه اصبري فإنّكِ على الحقِّ ".

وأفضل عيش في وقت المصائب والمحن والشدائد يدرك بالصبر عليها، وما أُعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع له من الصبر، كما قال صلى الله عليه وسلم " ومن يتصبر يصبِّره الله، وما أُعطيَ أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر ".

وهو خير الزاد عند المحن وعند نزول البلاء، قال الله تعالى: {ولئن صبرتم له خير للصابرين}.

وهو نور وضياء، كما قال صلى الله عليه وسلم " والصبر ضياء ".

وهو من الإيمان بمترلة الرأس من الجسد، فلا إيمان لمن لا صبر له.

وهو سبب في النصر على الأعداء، قال الله تعالى: {وَتَمّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ الْحُسْنَىَ عَلَىَ بَنِيَ إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ}. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " واعلم أنّ النّصر مع الصبّر ".

فالصبر على الطلب عنوان الظفر.

وهو من شيم العقلاء، ومن صفات أهل العزم والعزائم، قال الله تعالى: {ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور}، وقال تعالى: {وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور}.

وأجره عظيم، وثوابه جزيل، فقد ضمن الله للصابرين أعظم الجزاء، فأجر غيرهم محسوب، وأجرهم بغير حساب، قال الله تعالى: {إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}،وقال سبحانه: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل/٩٦]

وهو طريق من طرق الجنّة، وما نال أهل الجنّة الجنّة إلا بصبرهم، قال الله تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد/٢٣، ٢٤]}، وقال تعالى: {أولئك يُجْزَونَ الغُرْفَةَ بما صبروا}، وعن عـبـد الله بـن عـمـرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنِّ اللهَ عـزَّ وجـلَّ لـيـدعـو يـومَ الـقِـيـامَـة الـجَـنَّةَ فـتـأتـي بـزُخـرفِـهـا، وزِيـنـتِـهـا

فيقول: أينَ عبادي الَّذينَ قَاتَلوا في سَبيلي، وقُوتِلوا، وأُوذوا في سَبيلي، وجَاهدوا في سَبيلي، ادخلوا الجَنَّةَ، فيدخُلونَها بِغيرِ حِساب؛ وتأتي الملائكة فيسجدونَ، فيقولون َ: ربنَا نحنُ نُسبحُ بِحمدِكَ الليل والنَّهار ونُقدِّسُ لكَ، مَن هؤلاءِ الَّذينَ آثرتَهم عَلينَا؟ فيقولُ الرَّبُ عزَّ وجلَّ: هؤلاءِ عِبادي الَّذينَ قَاتَلوا في سَبيلي، وأُوذوا في سبيلي، فَتدخلُ عَليهم المَلائكة مِن كُلِّ بَاب {سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} " (السلسة الصحيحة).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: " إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه – أي عينيه – فصبر عوضته منهما الجنّة ".

وقال صلى الله عليه وسلم: " فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكثُ في بلده صابراً مُحتسباً يَعلم أنّه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثلُ أجر الشهيد ".

وقال صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى " ما لعبدي المؤمن عندي جزاءٌ إذا قبضتُ صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنّة ".

والصبر مفتاح كل خير.

الصبر مفتاح كل خير **** وكل شر به يهون

اصبر وإن طالت الليالي **** فربما ساعد الحرون

ورُبما نِيلَ باصطبار **** ما قيل هيهات أن يكون

وما أنعم الله على عبد نعمة، فانتزعها منه، فعوَّضه مكانها الصبر، إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه.

- **من أفضل آداب الرجال:**

قال أمان بن تغلب رحمه الله: سمعت أعرابياً يقول: [من أفضل آداب الرجال أنه إذا نزلت بأحدهم جائحة، استعمل الصبر عليها، وألهم نفسه الرجاء لزوالها، حتى كأنه لصبره يعاين الخلاص منها والعناء، توكلاً على الله عز وجل، وحُسْن ظنٍّ به، فمتى لزم هذه الصفة لم يلبث أن يقضي الله حاجته، ويزيل كربته، ويُنجِح طِلْبَته، ومعه دينه وعرضه ومروءته]

فإذا صبر العبد على البلاء والمحن والمصائب جعل الله عاقبة أمره يسرا وحسنى، وتحولت محنته إلى منحة، وأعطى من الله عوناً بقدر صبره على ما أصابه، وخفّ عنه حمل مصابه، وكل من صبر على البلاء والمحن والمصائب تحولت مخاوفه أمناً، وتحول تعبه راحة ونعمة ومسرة، وتحولت مظان هلكته إلى فوز ونجاة، وتحولت بليته إلى عطية وعافية.

[فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوباً، فإن الله لم يبتله ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته، فإنّ لله تعالى على العبد عبودية في الضراء، كما له عبودية في السراء، وله عبودية عليه فيما يكره، كما له عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يُعطون العبودية فيما يُحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره ففيه تفاوت مراتب العباد، بحسب منازلهم عند الله تعالى] الوابل الصيب.

والصبر وإن كان مُراً مذاقُهُ إلا أن عاقبته محمودة.

الصبر مثل اسمه مر مذاقته **** لكن عواقِبُهُ أحلى من العسل

- **عبودية في الضراء:**

وعبودية العبد المؤمن في قضاء المصائب الصبر عليها، ثم الرضا بها وهو أعلى منزلة منه، ثم الشكر عليها وهو أعلى منزلة من الرضا.

فاصبر على البلاء وارض بالقضاء فما بعد الشدّة إلا الفرج.

فاصبر لكل مصيبة وتجلد **** واعلم بأن المرء غير مخلدِ

واصبر كما صبر الكرام فإنها **** نوب تنوب اليوم تكشف في غدِ

أوما ترى أن المصائب جمة **** وترى المنية للعباد بمرصدِ

من لم يصب ممن ترى بمصيبة **** هذا سبيل لست عنه بأوحدِ

فإذا ذكرت مصيبة ومصابها **** فاذكر مصابك بالنبي محمدِ

صلى الله عليه وسلم

وما أجمل قول الشاعر: صابَرَ الصبرَ فاستغاث به الصب... رُ فصاح الصبور: يا صبر صبراً!

ومثله قول الآخر: صبرت على الأيام صبراً أصاربي... إلى أن ينادي الصبر: لا صبر لا صبر!

5- احتساب الأجر:-

فما من مصيبة وبلاء ومحنة تقع على العبد المؤمن فيحتسب أجرها عند الله إلا خف عليه حملها، وهان عليه أمرها، مع ما يعوضه الله عليها من الأجر العظيم والثواب الجزيل، من تكفير الخطايا ورفع الدرجات.

فمن مات صفيه من أهل الدنيا ثم احتسب أجره عند الله عوضه الله الجنّة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الله تعالى " مالعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنّة ".

ومن مات ابنه ثم حمد الله وصبر واحتسب الأجر عوضه الله بيتاً في الجنّة يُسمى بيت الحمد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنّ الله عز وجل إذا قبض ابن العبد المؤمن قال للملائكة: قبضتم ابن عبدي المؤمن؟ قالوا: نعم، قال: قبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا: نعم، قال: فماذا قال عبدي؟ قالوا: حمدك واسترجع. قال: ابنوا لعبدي بيتاُ في الجنّة وسموه بيت الحمد ".

ومن أصابه العمى فحمد وصبر واحتسب الأجر خف عنه مصابه وعوضه الله الجنّة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنّ الله عز وجل قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه – أي عينيه – فصبر عوضته منهما الجنة ".

فإذا تفكر العبد المؤمن فيما أعدّه الله لأهل البلاء والمصائب والمحن من عظيم الأجر وجزيل الثواب هانت عليه مصيبته، وخف عليه حملها، وتحولت بلاياه إلى عطايا، ومحنه إلى منح.

- **حلاوة أجرها أنستني مرارة ذكرها:**

[يُحكى عن امرأة من العابدات أنّها عثرت، فانقطعت إصبعها، فضحكت. فقال لها بعض من معها: أتضحكين وقد انقطعت إصبعك؟ فقالت: أخاطبك على قدر عقلك: حلاوة أجرها أنستني مرارة ذكرها. إشارةٌ إلى أن عقله لا يحتمل ما فوق هذا المقام من ملاحظة المبتلي، ومشاهدة حُسن اختياره لها في ذلك البلاء. وتلذذها بالشكر له، والرضى عنه، ومقابلة ما جاء من قِبَلِه بالحمد والشكر] مدارج السالكين.

لئن ساءني أن نلتني بمساءة **** فقد سرّني أنّي خطرت ببالكا

وأهل البلاء يوم القيامة يتمنون لو أهم أقرضوا بالمقاريض في الدنيا، لما يرون من عظيم الثواب لأهل البلاء، وحسنى عقبى صبرهم. ففي الترمذي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: [يودّ أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهل البلاء الثواب لو أنَّ جُلُودَهم كانت قُرِضتْ بالمقاريض]رواه الترمذي.

- **التفكر بالآخرة.. يخفف ألم العاجلة:**

يقول ابن القيم رحمه الله في ملاحظة حسن الجزاء: [وعلى حسب ملاحظته، والوثوق به، ومطالعته يخف حمل البلاء، لشهود العوض، وهذا كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها، لما يلاحظه من لذة عاقبتها، وظفره بها، ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدين والآخرة، وما أقدم أحدٌ على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة، فالنفس مُوكَلَةٌ بحبِّ العاجل، وإنّما خاصة العقل تلمح العواقب، ومطالعة الغايات.

- **النعيم لا يُدرك بالنعيم:**

وأجمع عقلاء كل أمة على أنّ النعيم لا يُدرك بالنعيم، وأنّ من رافق الراحة فارق الراحة، وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة، فإنّ على قدر التعب تكون الراحة:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم *** وتأتي على قدر الكِرامِ المكارِمُ

وتكبُرُ في عين الصغيرِ صغارُها *** وتصغر في عين العظيم العظائم

والقصد: أن ملاحظة حُسن العاقبة تُعين على الصبر فيما تتحمله باختيارك وبغير اختيارك] مدارج السالكين.

فكل ما يصيب المؤمن من محن ومصائب وبلاء فيه الخير له، لما فيه من تكفير للذنوب ورفع للدرجات مع ما يعوضه الله في الآخرة من الأجر العظيم.

6- علْمُهُ أنها أسهل من غيرها:

مما يخفف البلاء على العبد علْمُهُ بأنّ المصيبة التي نزلت به هي أسهل من غيرها وأخف، وأنّها لم تكن في دينه الذي هو عصمة أمره، وإنّما كانت في أمور دنياه الفانية.

- **تذكر وقت المصيبة:**

قال عمر رضي الله عنه: (ما أُصبت بمصيبة إلا ونظرت أنّ لله عليّ فيها ثلاث نعم:

الأولى: أنّ الله تعالى هوّنها عليّ فلم يُصبني بأعظم منها وهو قادر على ذلك.

الثانية: أنّ الله تعالى جعلها في دنياي و لم يجعلها في ديني وهو قادر على ذلك.

الثالثة: أنّ الله تعالى يأجرني بها يوم القيامة).

(فإنّه ما من محنة إلا وفوقها ما هو أقوى منها وأمر، فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال، فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده، وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة.

وأنّها في الحقيقة نعمة، والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين) مدارج السالكين.

فما دفع الله عز وجل عن عبده من البلاء أعظم وأكثر مما أصابه ومتى علم ذلك حمد الله وشكره على العافية.

7- علمه أنّه لا حيلة له في تفاديها:

مما يخفف على العبد البلاء علمه أنّه لا حيلة له في دفعها وتفاديها، فما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، رفعت الأقلام وجفت الصحف بما أنت لاقٍ، لاتبديل لكلمات الله، ولا راد لحكمه، ولا يُنجي حذر من قدر، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فكل بلاء ومحنة بقضاء سابق وقدر محتوم.

وعندما يعلم العبد أنّه لا قدرة ولا حيلة له على دفع ما وقع به، وأنه مكتوب عليه، فيستسلم لحكم الله ويرضى بقضائه يخف عليه عند ذلك بلاؤُه ُومصابه.

[وما يُستقبل لا يُدفع أيضاً بالهمّ، بل إمّا أن يكون له حيلة في دفعه، فلا يعجز عنه، وإمّا أن لا تكون له حيلة في دفعه، فلا يجزع منه، ويلبس له لباسه، ويأخذ له عدّته، ويتأهب له أهبته اللائقة به، ويستجن بجنّة حصينة من التوحيد، والتوكل، والإنطراح بين يدي الربّ تعالى، والاستسلام له، والرضى به ربّاً في كل شيء، ولا يرضى به ربّاً فيما يحب دون ما يكره] زاد المعاد.

8- علمه أن ما أبقى الله له أكثر مما أخذ منه:

ومما يخفف عن العبد البلاء علمه أنّ ما أبقى الله له أكثر مما أخذ منه، وكفى ببقاء نعمة الإسلام نعمة تهون دونها كل المصائب والابتلاءات وإن عظُمتْ، ولهذا كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: [ولا تجعل مصيبتنا في ديننا]رواه الترمذي، والحاكم.

يقول ابن القيم رحمه الله في هذا المعنى: [أن يعدَّ نعم الله عليه، وأياديه عنده، فإذا عجز عن عدِّها، وأيس من حصرها، هان عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه كقطرة في بحر]مدراج السالكين.

- **الموازنة بين النعم والنقم:**

ويُحكي أنّ عروة بن الزبير خرج إلى الوليد بن عبد الملك فظهرت في الطريق في رجله قُرحة، ثم ترقى به الوجع حتى قدم على الوليد وهو في مَحْمِل، فقطعها له الطبيب من نصف الساق دون أن يشرب المُرْقِدْ – أي المخدر والمنوم – فما زاد على أن قال حَسٍّ حَسٍّ. وأصيب في سفره هذا ابنه محمد بركضة من بغلة في اصطبل فمات منها، فلم يُسْمَعْ

منه كلمة، فلمّا رجع قال: [لقد لقينا في سفرنا هذا نصبا، اللهم كان لي بنون سبعة فاخذتَ واحداً وأبقيت ستة، وكان لي أطرافٌ أربعة، فأخذتَ طرفاً وأبقيت ثلاثة، ولئن ابتليتَ لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبقيت].

9- النظر إلى لطف الله بعباده المؤمنين:

فعلم العبد أنّ الله لطيف بعباده رحيم بهم، بل هو أرحم بهم من أمهاتهم اللاتي ولدنهم، يخفف عنه مصابه، لأن الله عز وجل ما اختار له ما اختاره إلا عن علم وحكمة كاملة ورحمة بعبده، فالله هو اللطيف الخبير سبحانه وتعالى، وإن ظهرت للعبد في وقتها أنّها محنة إلا أنّها في حقيقتها منحة، والعبد جاهل بعواقب الأمور والله عز وجل عالم بها وبمآلها وحسن عاقبتها للعبد في دينه ودنياه وآخرته، والله عز وجل عالم بما يُصلح عبده فيختار له ما يُصلحه وما فيه الخير له وإن ظهر للعبد في العاجل غير ذلك، والأمور بعواقبها وحسن مآلها، فالله عز وجل ما أنزل بعبده البلاء ليهلكه به بل ليُصلحه.

فهو سبحانه من لطف بإبراهيم لما أُلقي في النار، قال الله تعالى: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ}[الأنبياء/٦٩، ٧٠] فكانت عاقبة البلاء نصراً وعزاً وعافية.

وهو سبحانه من لطف بهاجر وابنها الرضيع إسماعيل عليه السلام عندما وضعهما ابراهيم عليه السلام حيث أمره الله ربه بواد غير ذي زرع، فكان عاقبتهما خيراً وجعل لهما لسان صدق في الآخرين.

وهو الذي لطف بيونس عليه السلام وهو في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل

قال الله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي

بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ، * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [الصافات١٣٩-١٤٨].

وهو الذي لطف بيوسف عليه السلام وهو في قعر البئر حتى جاءت القافلة فأرسلوا واردهم فأخرجه من قعر البئر، ثم أخرج بعد ذلك من السجن، ومكنّ الله له في الأرض بعد أن كان مسجوناً، وجمعه بأهله بعد طول فراق، وقد عدد عليه السلام نعم الله عليه بعد محنته كما قال تعالى: {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف/١٠٠، ١٠١]
وهو الذي لطف بأصحاب الكهف وهم في الغار فأماهم فيه أكثر من ثلاث مائة سنة. قال الله تعالى: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا} [الكهف/٢٥]. ثم بعثهم من نومهم لّما تبدل ذلك الحال الذي فروا فيه بدينهم.

وهو الذي لطف بموسى عليه السلام وهو طفل رضيع ألقته أمه في اليم، فالتقطه آل فرعون ليعيش في قصر فرعون وينجو بذلك من القتل، وتكون هلكة عدوه على يديه فسبحان من دبر الأمر ويقلبه كيفما شاء.
وهو الذي لطف به وبقومه لّما اتبعهم فرعون بجنوده حتى وصلوا البحر وصار البحر من أمامهم وفرعون وجنوده من ورائهم، وقال قوم موسى إنّا لمدركون، قال موسى: " كلا إنّ معيّ ربي سيهدين "، وأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه بها فانشق فكان كل فرقٍ كالطود العظيم. ومشى فيه موسى وقومه، فأتبعهم فرعون وجنوده، فأغرقهم الله في اليم، ونجى موسى وقومه.

وهو الذي لطف برسول الله صلى الله عليه وسلم في هجرته لّما دخل الغار مع صاحبه الصديق رضي الله عنه، والطلب من ورائهما، حتى وقفوا على فم الغار وصاروا بمكان لو

نظر أحدهم تحت قدميه لأبصره هو وصاحبه، ولكنّ الله لطيف بعباده، رحيم بخلقه وأوليائه، حكيم في اختياره، حسن الصنيع في تدبيره، فنجاهما برحمة منه سبحانه وتعالى.
فحقٌ على البعد أن يرجو من الله في محنته لطفاً، وينتظر منه فرجاً ومخرجاً.

10 - النظر إلى من هو دونه:

ينبغي على العبد المؤمن أن ينظر إلى من هو تحته، ولا ينظر إلى من هو فوقه وأفضل منه، وإلى من هو أتم عافية منه، حتى تخف عليه مصيبته، وحتى لا يزدري نعمة ربّه عليه ولطفه به، وحتى لا يصيبه الهمّ والغمّ، وقد يؤدي به ذلك ازدراء نعمة الله عليه وإلى التسخط والعياذ بالله.
روى الامام أحمد في مسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال [أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بسبع: بحبِّ المساكين، وأن أدنوَ منهم، وأن أنظرَ إلى من هو أسفل مني، ولا أنظرَ إلى من هو فوقي، وأن أصل رحمي وإن جفاني، وأن أُكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، وأن أتكلم بمرِّ الحق، ولا تأخذني في الله لومة لائمٍ، وأن لا أسأل النّاس شيئاً].
وعن أبي هريرة –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه] متفق عليه. وفي رواية لمسلم قال: [انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم].

- **لست أنت وحدك:**

فمما يخفف على العبد المؤمن المبتلى بلاءه ومحنته علمه أنّه ليس هو وحده المبتلى، ولا هو وحده الممتحن، ولا هو وحده المصاب، بل إن مصيبته مقارنة مع غيره يسيرة هينة، وأنّه أينما يمم بوجهه يُمنة أو يُسرة وجد مصاباً بأعظم من مصابه، ومبتلى بأشد من ابتلائه، وممتحناً بأكبر من امتحانه، فكم من مريض على سريره من سنين يتقلب في فراشه ذات الشمال وذات اليمين، وهو يئن من الآلام، ويصيح من الأسقام، وكم من سجين يئن تحت التعذيب، وكم من مصفد بالحديد لم ترَ عيناه نور الشمس الأعوام المتتالية، وكم من

سجين قابع في قفص، أو في زنزانة لا تكاد تكفيه حتى لمد رجليه، فعلى العبد أن ينظر إلى من هم حوله ممن محنتهم وبلاؤهم أشد من محنته وبلائه، ليخف عنه بلاؤه وتهون عليه مصيبته ويسهل عليه تحملها.

ولولا كثرة الباكين حولي ** على إخوانهم لقتلت نفسي**

فأنت بما أصابك فوق كثير من الناس، وأخف بلاءً منهم، وأحسن حالاً منهم، وأتم عافية منهم، فاحمد الله على لطفه بك. وتعزَّ بمن هم دونك، تَخف عليك مصيبتك.

١1- رجاؤه استيفاء حقه يوم القيامة:

ومما يخفف على العبد مصابه علمه أنّ هناك يوما لابد ملاقيه وواقف فيه بين يدي ربّه، وذلك يوم مجموع له الناس ومعروضون فيه على الله بأعمالهم، وكل واحد يستوفي فيه حقه كاملاً غير منقوص ويزيده الله من فضله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء/٤٠]

فمن أُصيب هنا كوفيء هناك، ومن ابُتلى هنا عوفي هناك، ومن تَعب هنا ارتاح هناك، ومن حُرِمَ هنا أُعطي هناك، ومن أُهين هنا أُكرم هناك، ومن سُلب ماله هنا استوفاه هناك، ومن ظُلم هنا، انتصف له من ظالمه هناك، فما يبرح المظلوم بالظالم حتى يترع ما عنده من حسنات، فإن نفذت حسناته و لم يستوفِ المظلوم منه حقه، أخذ من سيئات المظلوم وطرحت عليه، ثم يكب على وجهه في نار جهنم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من كانت عنده مظلمة لأخيه، من عرضه أو من شيء، فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه]رواه البخاري.

- **حقيقة الإفلاس:**

وقال صلى الله عليه وسلم: [أتدرون من المفلس؟

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: إنّ المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يَقضيَ ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثمّ طُرح في النّار]رواه مسلم والترمذي وغيرهما.

فاحمد الله أنك كنّت في هذه الدنيا مظلوماً لا ظالماً.

بكى الفضيل ذات يوم فقيل له ما يبكيك؟ فقال: [أبكي على من ظلمني، إذا وقف غداً بين يدي الله تعالى و لم تكن له حُجة].

فمن نعمة الله على العبد المؤمن أن يجعله في هذه الدنيا مظلوماً يترقب النصر، و لم يجعله ظالماً يترقب المقت والأخذ والهلاك، وهذا مما يُخفف عنه مصابه وبلاءه.

وما يسلبك الله شيئاً هنا إلا عوضك خيراً منه هناك.

قُتِلَ جعفر رضي الله عنه يوم مؤتة وقطعت يداه فعوضه الله بهما جناحين يطير بهما في الجنّة حيث يشاء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [رأيت جعفر بن أبي طالب ملكا يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين]رواه الترمذي،والحاكم.

قال الحافظ المنذري –رحمه الله-: [كان جعفر رضي الله عنه قد ذهبت يداه في سبيل الله يوم مؤتة فأبدله بهما جناحين فمن أجل ذلك سمي جعفرا الطيار].

ومن أصابه العمى هنا عوض بهما الجنّة.

ومن مات ولده هنا وصبر بُني له بيت في الجنّة سُمّي بيت الحمد.

فالجزاء من جنس العمل.

يقول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في أحد خطبه: [أيها الناس إنّكم لم تُخلقوا عبثا، ولم تتركوا سُدى، وإنّ لكم معاداً يجمعكم الله عز وجل فيه للحكم فيكم، والفصل بينكم، فخاب وشقي عبد أخرجه الله عز وجل من رحمته التي وسعت كل شيء، وجنّته التي عرضها السموات والأرض، وإنّما يكون الأمان غداً لمن خاف الله تعالى واتقى، وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباق، وشقاوة بسعادة].

12- عِلْمُهُ أنّ هذه الدنيا عمرها قصير:

ومما يخفف عن العبد بلاءه ومصابه علمه أنّ هذه الدنيا عمرها قصير، وكثرها حقير. يقول الله تعالى مبيناً قصر عمرها: {كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار}، ويقول تعالى: {كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها}، ويقول تعالى: {قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلاً لو كنتم تعلمون}، وقال تعالى: {إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً}.

فما أصاب العبد فيها من بلاء فهو إلى زوال عن قريب، فما هي إلا أيام معدودات وإنّ طالت حتى تسكن النفس إلى جنب باريها، وتسعد بقربه، وتنعم بما أعدّه لها جزاء صبرها ورضاها بما أصابها في ذات الله في هذه الدنيا.

- **حقيقة متاع الدنيا:**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يُؤتى بأنْعَم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصْبَغُ في النار صبغةً، ثم يقال: ياابن آدم هل رأيت خيراً قطُّ؟ هل مرَّ بك نعيم قطُّ؟ فيقول: لا والله ياربِّ. ويؤتى بأشدِّ النّاس بُؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيُصْبَغُ صبغةً في الجنّة، فيُقال له: ياابن آدم هل رأيت بؤساً قطُّ؟ هل مرَّ بك شدّةٌ قطُّ؟ فيقول: لا، والله ما مرَّ بي بؤسٌ قطُّ. ولا رأيتُ شدّةً قطُّ]رواه مسلم.

فكل نعيم دون الجنّة فهو حقير وقليل.

وكل ما مرّ على العبد المؤمن في هذه الدنيا من ابتلاءات ومحن وشدائد ومصائب وكروب وأحزان، فهي دون النار يسيرة.

ومهما أصاب العبد المؤمن في هذه الدنيا من بلاء ومحن ونصب وتعب وضنك وكرب ومصائب وأمراض، فانها إلى زوال، وما يبقى منها إلا الأجر والثواب. قال الله تعالى: {وللآخرة خير لك من الأولى}، وقال تعالى: {والآخرة خير وأبقى}.

ولو تفكر المؤمن في الدنيا وحقيقتها لعلم أنها إنّما هي سجن، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: [الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر]رواه مسلم.

قال المناوي: [ذكروا أن الحافظ ابن حجر لما كان قاضي القضاة مر يوما بالسوق في موكب عظيم وهيئة جميلة فهجم عليه يهودي يبيع الزيت الحار وأثوابه ملطخة بالزيت

وهو في غاية الرثاثة والشناعة فقبض على لجام بغلته وقال: يا شيخ الإسلام تزعم أن نبيكم قال الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر فأي سجن أنت فيه وأي جنة أنا فيها فقال: أنا بالنسبة لما أعد الله لي في الآخرة من النعيم كأني الآن في السجن وأنت بالنسبة لما أعد لك في الآخرة من العذاب الأليم كأنك في جنة فأسلم اليهودي](فيض القدير: ٣ / ٧٣٠)

فالدنيا دار البلاء والمصائب والكروب والمحن والأكدار، وفيها قُتِلَ الأنبياء، وفيها أوذوا وأخرجوا من ديارهم وأوطانهم، وفيها نُكل بأتباعهم، وفيها سجن الصالحون والأولياء وكبار الأئمة والعلماء وهجِّروا وقتِّلوا وشرِّدوا.

فمن تدبر حقيقة الدنيا وأنها سجن المؤمن مهما أتسعت، وأنّ عمرها قصير، وأنّها إلى زوال عن قريب، وأنّ مرده إلى جنّة أو نار، خف عنه مصابه، وهان عليه كربه.

ولكننا سبي العدو فهل تُرى **** نعود إلى أوطاننا ونسلم

يقول فتح الموصلي رحمه الله: [كنّا قوماً من أهل الجنّة فسبانا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهمّ والحزن حتى نُرد إلى الدار التي أُخرجنا منها].

13- علمه أنّ هذا البلاء هو طريق الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام:

فهم عليهم السلام أشدّ النّاس بلاءً، وكذلك أتباعهم من بعدهم، ومن سار على طريقهم وسلك منهجهم واستن بهديهم.

أفلا يكون للعبد المؤمن في أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام أسوة حسنة؟

قال الله تعالى: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ}. وقال تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجوا الله واليوم الأخر وذكر الله كثيراً}. وقال تعالى: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولّما يأتيكم مثل الذين خلو من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب}.

فمن علم أنّ هذا هو طريقهم، فتأسى بهم في صبرهم، وفي تحملهم للمشاق والمكاره، وفي رضاهم بما نالهم في سبيل الله، وفي رضاهم بما قدره الله عليهم، خف عنه بلاؤُه، وهانت عليه مصيبته.

14- القراءة في سير الأولين من الأنبياء وأتباعهم والصالحين:

مما يخفف عن العبد المؤمن مصابه وبلاءَه أن يقرأ سير الأولين من الرسل عليهم الصلاة والسلام وما أصابهم من بلاء ومحن، وكيف واجهوا هذه الابتلاءات وصبروا عليها حتى نالوا السؤدد. قال الله تعالى: {وكلاً نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك}، وقال تعالى: {فاقصص القصص لعلهم يتفكرون}، وقال تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب}.

وقال الشاعر:

اقرأ التاريخ إذ فيه العبر **** ضلَّ قوم ليس يدرون الخبر

فما من نبي إلا عُودي وأوذي، وبعضهم أُخرج من دياره ومن بين قومه.

لّما نزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم أخبر زوجته خديجة رضي الله عنها فانطلقت به حتى أتت على ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن كتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

فقالت له خديجة: يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي! ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى. فقال له ورقة وهو العالم بقصص الأنبياء السابقين من قبل: (هذا الناموس الذي كان يترل على موسى، يا ليتني أكون فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يُخْرجك قومك).

فقال النبي صلى الله عليه وسلم متعجباً من ذلك: " أومُخرجي هم؟! "

فقال: (نعم؛ لم يأت رجل قطّ بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً).

فالعبد المؤمن إذا قرأ قصص الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام، وتدبر في سيرهم وسير أتباعهم مع أممهم وأقوامهم، ولا سيما قصة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه وما لاقاه من ابتلاءات ومحن وأذى، وكذلك الصحابة الكرام والسلف الصالح عليهم من

الله الرضوان، وما أصابهم من ابتلاءات ومحن في سبيل الله خف عنه بلاءه، وهان عليه ما يلاقيه من أذى الخلق، وسهلت عليه مصيبته. ولعلم أنّ ما أصابه دون ما أصابهم عليهم الصلاة والسلام وما أصاب أتباعهم بكثير، فأين هو ممن نُشر بالمنشار نصفين، وأين هو ممن أُلقي في أخاديد النار، وأين هو ممن قطع قطعة قطعة حتى قتل، وأين هو ممن حُرق بالنار ووضع على الجمر حتى لا يطفئه إلا ودك الظهر، وأين هو ممن صلب وجلد وأُخذ كل ماله، وأين هو ممن سفكت دماؤهم واستحيت نساءهم وقتلت أولادهم أمام أعينهم، فلا شك أن قرأ هذه السير وتدبر في هذه القصص سهل عليه شأن مصيبته.

15- علمه أنّه إنما أصيب في ذات الله:

ومما يخفف عن العبد محنته وبلاءه ومصابه علمه أنّه إنّما أصيب في سبيل الله وفي مرضاة الله ومحابه، وأنّ غيره ممن حوله أصيبوا في سبيل شهواتهم وأهوائهم ولذاتهم، وفي سبل الشيطان ومع ذلك صبروا، فهو أولى منهم بالتجلد، والتحلي بالصبر واحتساب الأجر، وهذا شأن المحب لله، فإنه يرضى بكل ما يصيبه في ذات محبوبه.

قال أبو جعفر الأنباري: [لمّا حُمل أحمد إلى المأمون أُخبرت، فعبرت الفرات، فاذا هو جالس في الخان، فسلمت عليه، فقال: يا أبا جعفر تعنّيت. فقلت يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك فو الله لئن أجبت إلى خلق القرءان ليجيبن خلق، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت، لابد من الموت، فاتق الله ولا تجب.

فجعل أحمد يبكي ويقول ما شاء الله ثم قال يا أبا جعفر أعد عليّ، فأعدت عليه وهو يقول ما شاء الله.

وقال محمد بن ابراهيم البوشنجي: جعلوا يذاكرون أبا عبد الله بالرقة في التقية وما روي فيها فقال كيف تصنعون بحديث خباب أن من كان قبلكم كان ينشر أحدهم بالمنشار لا يصده ذلك عن دينه. فأيسنا منه.

وقال: لست أبالي بالحبس ما هو ومترلي إلا واحد، ولا قتلا بالسيف، إنما أخاف فتنة السوط. فسمعه بعض أهل الحبس فقال: لا عليك يا أبا عبد الله فما هو الا سوطان ثم لا تدري أين يقع الباقي فكأنه سري عنه.

قال الإمام أحمد رحمه الله: [صرنا إلى الرحبة ورحلنا منها في جوف الليل فعرض لنا رجل فقال أيكم أحمد بن حنبل؟ فقيل له: هذا. فقال للجمال: على رسلك. ثم قال: يا هذا ما عليك أن تقتل ها هنا وتدخل الجنة. ثم قال: استودعك الله، ومضى.

- **كلام الأعرابي.. قوّى قلبي:**

قال أحمد بن حنبل ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق قال: يا أحمد إن يقتلك الحق متّ شهيدا، وإن عشت حميداً. فقوي قلبي].

وقال الطفاوي للإمام أحمد: أخبرني بما صنعوا بك قال لما ضربت بالسياط جعلت أذكر كلام الأعرابي.

وقال أيضاً رحمه الله: [كلمتان نفعني الله بهما في المحنة.

الأولى: لرجل حُبس في شرب الخمر، فقال: يا أحمد اثبت فإنّك تجلد في السنة، وأنا جُلدت في الخمر مراراً وقد صبرت.

والثانية: لما أخرج بنا جعلت أفكر فيما نحن فيه حتى إذا صرنا إلى الرحبة أنزلنا بظاهرها فمددت بصري فاذا بشيء لم استثبته فلم يزل يدنو وإذا أعرابي جعل يتخطى تلك المحامل حتى صار اليّ فوقف عليّ فسلم ثم قال: أنت أحمد بن حنبل؟ فسكت تعجبا، ثم أعاد فسكت. فبرك على ركبتيه فقال: أنت أبو عبد الله أحمد بن حنبل؟ فقلت: نعم. فقال: أبشر واصبر فإنما هي ضربة هاهنا وتدخل الجنة هاهنا].

فما من مصيبة تقع على العبد في سبيل الله إلا خفت على صاحبها لما يرى أنّه إنّما أصيب في سبيل محبوبه سبحانه وتعالى.

كما قال خبيب رضي الله عنه يوم صلب:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً **** على أي جنب كان في الله مصرعي

وكما قال صلى الله عليه وسلم عندما أصاب حجر أصبعه فدميت:

هل أنت إلا إصبع دميتِ **** وفي سبيل الله ما لقيت

متمثلا بشعر ابن رواحة هذا.

وهذا بعكس من أصيب في سبيل الشيطان، وفي سبيل الشهوات والمعاصي والمحرمات.

١٦- وجود الأنيس والرفيق الصالح:

مما يخفف البلاء عن العبد وجود الأنيس والرفيق الصالح الذي يشارك المصاب همومه وآلامه ويواسيه ويخفف عنه مصابه بالنصح والتذكير والإعانة وتحمل جزء من عبء هذه الهموم.

فهذا مما يثبت النفس ويخفف المصاب ويعين على رفع البلاء. ولعل ما مرّ معنا من موقف زوجة أيوب عليه السلام خير مثال على ذلك. فبعد أن عافه الناس وانقطعوا عنه وأوحش منه الجليس والأنيس، وأخرج من بلده، وألقي على مزبلة خارج البلدة، ولم يبق أحد يحنو عليه، كانت زوجته ترعى له حقه وتتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته، فخفف الله بها عنه كثيرا من مصابه.

- **الزوجة الصالحة.. خير معين:**

وما حدث من وقوف خديجة رضي الله عنها مع النبي صلى الله عليه وسلم من أول يوم من أيام البعثة لخير دليل أيضاً على ذلك. فما أن رجع إليها النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحي عليه خائفاً يرجف فؤاده وهو يقول لها: " زَمِّلُونِى زملونى " ، حتى شدّت من عضده وواساته بأعظم الكلمات مذكرة له بسابق عمله الصالح وأن الله لن يخزيه فقالت له: (كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق). فخف حمله بهذه الكلمات من زوجه خديجة رضي الله عنها ثم ما كان بعد ذلك من استمرار وقوفها بجانبه تواسيه بمالها وبكل ما تملك فكانت خير عضد له في تبليغ دعوة ربّه. فالزوجة الصالحة المؤمنة بدعوة الحق تذلل كثيرا من الصعاب لزوجها الداعية إذا شاركته في همومه وآلامه.

(قال ابن إسحاق: وآمنت خديجة بنت خويلد وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدقت بما جاء منه.

فخفف الله بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يسمع شيئاً يكرهه – من رد عليه، وتكذيب له، فيحزنه ذلك – إلا فرج الله عنه بها؛ إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس، رضي الله عنها وأرضاها) السيرة النبوية لابن كثير.

وكان جزاؤها أن بشرها الله بالجنّة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أمرتُ أن أبشر خديجة ببيت من قصب في الجنّة؛ لا صخب فيه ولا نصب]رواه مسلم.

(إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه، وتؤازره في أحرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه في مغارم الجهاد المر، وتواسيه بنفسها ومالها، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرم ولد غيرها ") الرحيق المختوم.

وكذلك ما كان من وقوف أبي بكر الصديق رضي الله عنه بجانب الرسول صلى الله عليه وسلم خير معين له بعد الله في تخفيف أعباء حمل الرسالة وفي دفع أذية الكفار عنه وفي تبليغ دعوته فواسه بماله ودافع عنه بنفسه و لم يدخر جهدا في الشدّ من عضده ومؤازرته.

١٧- كثرة الاستغفار والتوبة إلى الله:

كثرة الاستغفار لا أقول تخفف البلاء والمحن فقط، بل ترفعها وتزيلها، وتجعل بعد الهمّ والغمّ عند العبد المؤمن فرجاً وسروراً.

رُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " منْ لزِم الاستغفار، جعل الله له من كلِّ ضيقٍ مخرجاً، ومن كل همٍّ فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب " رواه أبو داود وأحمد وابن ماجه والحاكم وفي سنده الحكم بن مصعب، قال أبو حاتم: مجهول، وذكره ابن حبان في الضعفاء.

فالاستغفار يفرج الله به الكرب، لأنه ما نزل بلاء إلا بذنب، وما رُفع إلا بتوبة. قال الله تعالى: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفُ عن كثير}، وقال تعالى: {أولّما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم}. وقال تعالى: {ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك}

فكثرة الاستغفار يُفرج الله بها عن العبد المؤمن كربه، ويخفف بها عن مصابه.

قال علي رضي الله عنه: (عجبت لمن يهلك والنجاة معه؟ قالوا: وما هي؟ قال: الاستغفار).

١٨- كثرة الذكر والدعاء:

الذكر مع ما فيه من أجر عظيم، وثواب جزيل، ورفعة درجة، وعلو منزلة، ومحو سيئة، فهو أيضاً قوت القلوب ودواؤها وغذاؤها وروحها وعمارتها، وبه تخفف المصائب والمحن.

قال الله تعالى: {ألا بذكر الله تطمئن القلوب}.

وبالذكر تُستدفع الآفات، وتُكشف الكربات، وتهون المصائب، وتُجلى الهموم والأحزان.

والذكر يجعل القلب الحزين فرحاً ضاحكاً مسروراً.

وهذا المعنى ظاهر في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: [دعوة ذي النون إذ دعاه وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له] رواه الترمذي -واللفظ له- والنسائي، والحاكم، وقال صحيح الإسناد وزاد

روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه - قال: مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني، ثم لم يردد عليّ السلام فأتيت عمر بن الخطاب فقلت يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء؟ قال: لا، وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يرد عليّ السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقال ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت. قال سعد: قلت بلى، حتى حلف وحلفت. قال: ثم إن عثمان ذكر فقال بلى واستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من

رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا والله ما ذكرتها قط ألا تغشى بصري وقلبي غشاوة. قال سعد فأنا أنبئك بها إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم: فاتبعته فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله، ضربت بقدمي الأرض فالتفت إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " مَنْ هذا؟ أبو إسحاق" قال: قلت نعم يا رسول الله، قال: خه؟ قلت: لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة. ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك. قال: نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت {لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ} فإنه لم يدع بها مسلم ربّه في شيء قط إلا استجاب له ". ورواه الترمذي والنسائي.

- **من أسباب إجابة الدعاء:**

وروى ابن جرير عن سعيد بن المُسَّيب قال سمعت سعد بن مالك - وهو ابن أبي وقاص يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " اسم الله الذي إذا دعُي به أجاب، وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى " قال: فقلت: يا رسول الله هي ليونس خاصة، أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها. ألم تسمع قول الله تعالى: {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} فهو شرط من الله لمن دعاه به فيونس عليه السلام وهو في شدّة الكرب والهمّ والغمّ دعا بهذا الدعاء فاستجاب الله له. قال الله تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ} أي الكرب والضيق الذي كان فيه {وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} أي وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا.

وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا المعنى منها:

قوله صلى الله عليه وسلم لرجل: " ألا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همّك، وقضى عنك دينك: قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهمّ والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ". قال الأنصاري: فقلتهن، فأذهب الله همي، وقضي عني ديني.

وقوله صلى الله عليه وسلم: " من قال: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. سبع مرات في الصباح وفي المساء كفاه الله ما أهمّه من أمر الدنيا والآخرة ".

ومن قال: " لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله الله ربّ العرش العظيم، لا إله إلا الله ربّ السموات وربّ الأرض ربّ العرش الكريم. أذهب الله همّه وفرج كربه ".

ومن قال: " الله الله ربي لا أشرك به شيئاً. أذهب الله همّه وحزنه وغمّه وأبدله مكانه فرحاً وسروراً".

فكثرة ذكر الله تفرج الهمّ، وتكشف الغمّ، وتسهل الصعب،وتيسر العسير، وتخفف المصاب، مع ما فيه من أجر وعلو درجة، ولهذا فإن الله سبحانه لما نجى يونس من الظلمات بين أن من أسباب تعجيل فرجه كثرة تسبيحه في الرخاء فقال سبحانه: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات/١٤٣، ١٤٤].

قال بعضهم: [اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، فإن يونس عليه السلام كان عبداً صالحاً ذاكراً لله تعالى، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى: {فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون} وإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً، فلما أدركه الغرق قال: {آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل} قال الله تعالى: {ءالئَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ}](تفسير الرازي: ١٣ / ١٥١).

[إنّ ذكر الله عز وجل يسهل الصعب، وييسر العسير، ويخفف المشاق، فما ذُكر الله عز وجل على صعب إلا هان، ولا على عسير إلا تيسر، ولا مشقة إلا خفت، ولا شدّة إلا زالت، ولا كربة إلا انفرجت، فذكر الله تعالى هو الفرج بعد الشدّة، واليسر بعد العسر، والفرج بعد الغمّ والهمّ] الوابل الصيب

و[ما استجلبت نعم الله عز وجل واستدفعت نقمته بمثل ذكر الله تعالى. فالذكر جلاب للنعم، دافع للنقم. قال سبحانه وتعالى {إن الله يدفع عن الذين آمنوا} وفي القراءة الأخرى {إن الله يدافع}، فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله، ومادة الإيمان وقوته بذكر الله تعالى. فمن كان أكمل إيماناً وأكثر ذكراً كان دفع الله تعالى عنه ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص، ذكراً بذكر، ونسياناً بنسيان] الوابل الصيب.

وكذلك كثرة الدعاء تُذهب الهمّ والغمّ، وتخفف عن العبد مصابه.

فمن قال: [اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماضي في حكمك عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أوعلمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همّي]. اذهب الله همّه وغمّه وأبدله مكانه فرحاً وسروراً.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما أصاب أحداً قطّ همّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك... إلى آخره، إلا أذهب الله حزنه وهمّه وأبدل مكانه فرحاً.

فقيل يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال: " بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها ".

[قوله " عدل فيّ قضاؤك "، وهذا يتناول كل قضاء يقضيه على عبده من عقوبة أو ألم وسبب ذلك، فهو الذي قضى بالسبب وقضى بالمسبب وهو عدل في هذا القضاء. وهذا القضاء خير للمؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له، وليس ذلك الا للمؤمن "] الفوائد لابن القيم.

فالبلاء يُستقبل بالدعاء. قال الله تعالى: {فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم}، وقال تعالى: {قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخيفة لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب}، وقال تعالى {أمن يجيب المضطر إذا دعاه}.

فالله عز وجل لطيف بعباده قريب سميع مجيب، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويعطيه إذا سأله، لا تتعاظمه مسألة ولا تعجزه حاجة لعبده يعطيها إياه، يحب من يسأله ويغضب على من لا يسأله. كما قال صلى الله عليه وسلم: " من لم يسأل الله يغضب عليه ".

الله يغضب إن تركت سؤاله **** وبني آدم حين يُسأل يغضب

يمنيه ملأى سبحانه وتعالى لا تغِيضُهَا نفقة، سَحَّاءُ الليل والنهار، بيده خزائن السموات والأرض. {يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن}. [يغفر ذنباً، ويُفرج همّاً، ويكشف كرباً، ويُجبر كسيراً، ويُغني فقيراً، ويُعلم جاهلاً، ويهدي ضالاً، ويُرشدُ حيرانَ، ويُغيث لهفانَ، ويفكُّ عانياً، ويُشبعُ جائعاً، ويكْسو عارياً، ويشفي مريضاً، ويعافي

مبتلّى، ويقبل تائباً، ويُجزي مُحسناً، وينصر مظلوماً، ويُقصم جباراً، ويُقيلُ عثرةً، ويستر عورةً، ويؤمّن روعةً، ويرفعُ أقواماً ويضع أخرين] الوابل الصيب.
فحق على العبد أن يدعوه عند نزول الكربات، ويفزع إليه عند الملمّات. ليخف المصاب، ويرتفع البلاء، وينكشف الكرب، ويسرع الفرج.

ولا يرد القضاء إلا الدعاء، وهما يتنازعان بين السماء والأرض، فإن وقع القضاء ادخرها الله لعبده يوم القيامة، أو صرف عنه من السوء مثلها.

- **ثمرة الدعاء مضمونة:**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال:
إمّا أن يُعجّل له دعوته.
وإمّا أن يدّخرها له في الأخرة.
وإمّا أن يصرف عنه من السوء مثلها ".
قالوا: إذن نُكثر يا رسول الله؟
قال: " الله اكثر ".
وإذا سألت الله كشف ملمَّة...فألحّ واخشع في الدعاء وكررِ
وأدِمْ سؤالك للكريم فإنمـــا...يرجى الجواب بذا ولاتستحسرِ

١٩- الالتجاء إلى الصلاة:

إذا نزلت بالعبد مصيبة أو محنة أو بلاء فعليه أن يلجأ إلى الله بالصلاة.
قال الله تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة/٤٥]، وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة/١٥٣]. قال قتادة رحمه الله: [إنهما معونتان من الله فاستعينوا بهما]. وقال ابن جريج: [إنهما معونتان على رحمة الله].

فالإستعانة بالصلاة من أكبر العون على تخفيف البلاء، ومن أعظم العون على الثبات في الأمر عند نزول المحن، بل هي من أعظم المثبتات على سبيل الهدى وطريق الحق الذي تلازمه العقبات وتعترضه الشدائد.

قال العلامة السعدي –رحمه الله-: [وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعا فيها ما يلزم فيها، وما يسن، وحصل فيها حضور القلب، الذي هو لبها فصار العبد إذا دخل فيها، استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه، موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضرا لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقا بمناجاة ربه ودعائه لا جرم أن هذه الصلاة، من أكبر المعونة على جميع الأمور فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة، يوجب للعبد في قلبه، وصفا، وداعيا يدعوه إلى امتثال أوامر ربه، واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.](تفسير السعدي: ١ / ٧٤).

بل إن إكثار المرء للصلاة في حالة سعته ورخائه وعافيته مع إتمام فرائضها وواجباتها ومستحباتها يكون سبباً في تخفيف البلاء عند نزوله وربما كانت سبباً في صرفه كلية، ولهذا جاء في تفسير قوله تعالى: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ} [الصافات/١٤٣]أي من المصلين كما ذكر ذلك غير واحد من السلف رضوان الله عليهم كما روى ذلك عنهم ابن جرير –رحمه الله- فقال: [يقول تعالى ذكره:(فَلَوْلا أَنَّهُ) يعني يونس(كَانَ مِنَ) الْمُصَلِّينَ لله قبل البلاء الذي ابتُلي به من العقوبة بالحبس في بطن الحوت(لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) يقول: لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، يوم يبعث الله فيه خلقه محبوسا، ولكنه كان من الذاكرين الله قبل البلاء، فذكره الله في حال البلاء، فأنقذه ونجّاه.

... عن قتادة(فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) كان كثير الصَّلاةِ في الرّخاء، فنجَّاه الله بذلك؛ قال: وقد كان يقال في الحكمة: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا ما عَثَر، فإذا صُرِع وجد متكئا.](تفسير الطبري: ٢١ / ١٠٨)

روى ابن جرير أن ابن عباس رضي الله عنهما نُعي إليه أخوه (قثم) وهو في سير، فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ، فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى

راحلته وهو يتلو قوله تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة/٤٥]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وفي ليلتي بدر والأحزاب لّما اشتد على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه الكرب، ونزل بساحتهم الأعداء، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ويدعو حتى جاءه النصر من الله، وجاءه الفرج بعد الشدة والكرب.

رُوي عن علي رضي الله عنه أنّه قال: [لقد رأيتنا في ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصلي ويدعو حتى أصبح].

وذكر محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة أن حذيفة رضي الله عنه قال: [رجعت الى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب وهو مشتمل شملة يُصلي، وكان إذا حزبه أمر صلى].

ويُحكى أن ابن حجر العسقلاني رحمه الله ذهب إلى القلعة بمصر فأحاط به اللصوص في الطريق، فقام يصلي ففرج الله عنه.

وذكر ابن عساكر وابن القيم رحمهما الله أن رجلاً من الصالحين خرج عليه لص في إحدى طرق الشام، فاجهز عليه اللص ليقتله، ويسلب ماله، فاستأذنه في أن يُصلي ركعتين، فلمّا قام وافتتح الصلاة، تذكر قوله تعالى {أمن يجيب المضطر إذا دعاه} فرددها ثلاثا.

فنزل ملك من السماء بحربة فقتل اللص وقال له أنا رسول من يجيب المضطر إذا دعاه.

وهذا يُشرع ويكون حسناً في مثل هذه الحالة عند العجز عن الأخذ بالأسباب المعروفة لدفع مثل هذا الصائل، ويُشرع أيضا ويكون حسناً كذلك بعد الأخذ بالأسباب المعروفة لدفع الصائل واستكمالها.

- **قصة واقعية:**

حكى لي أحد الإخوة المصريين من جماعة الجهاد وكان قد اعتقل في مملكة آل سعود في المطار وأدخل الى السجن وعلمت السفارة بوجوده في السجن فأرسلت وفدا لإدارة

السجن لتسليمه إليها وكانوا قبلها بأيام قد تسلموا شقيق هذا الأخ من نفس السجن حيث قبض عليه قبله بيوم، وقابلوا إدارة السجن ووافقوا على تسليمه لمصر، وذات يوم استدعي لإدارة السجن لتسليمه للوفد الذي حضر من طرف السفارة وكلهم أعضاء في جهاز أمن السفارة. فأُخرج من مكان سجنه الى قسم أخر في داخل السجن الكبير حيث كان يتم التحقيق، وأُحضر الى مكان التحقيق فرأى وفد السفارة جالسين في المكتب لإتمام إجراءات التسليم والترحيل الى مصر فأصاب الاخ الهمّ والغمّ الشديد لأنه كان مطلوباً في مصر بعدة قضايا جهادية، وكان بجوار المكتب مكان معد للصلاة، فاستأذن الأخ من الشرطي الذي كان يحرسه في أن يصلي ركعتين فوافق الشرطي فدخل الأخ في صلاته ويقول أنّه ارتاح كثيرا في الصلاة واجتهد في الدعاء لعلمه ويقينه أنه لا ينجيه منهم إلا هو سبحانه وتعالى وأطال في صلاته فسمع الشرطي وهو يقول له: أيش سوف تطير؟.

ثم شعر الاخ بأن المكان هاديء فأنهى صلاته فلم يجد الشرطي فأخذ حذاءه وخرج فلم يكلمه أحد ولم يوقفه أحد حتى وجد نفسه في ساحة فارغة أمام مقر التحقيق ورأى أن هناك أماكن جديدة تحت الإنشاء فاتجه صوبها متوكلا على الله في أن يجعل له فرجا ومخرجا مما هو فيه، فوجد أن العمال قد انصرفوا من موقع البناء وبقيت معدات البناء في مكانها فأختبأ في ذلك البناء الذي كان تحت الإنشاء وبعد قليل بدء يسمع أصوات سيارات الشرطة في كل مكان تبحث عنه وهو في هذه الحالة مجتهد في الدعاء حتى دخل عليه الليل وهو في مكانه وبعد المغرب بقليل هدء من حوله كل شيء بسبب أن المكان الذي من حوله كان فقط معداً للتحقيق وكل الضباط والشرطة قد غادروا المكان فنظر حوله فوجد أمامه سور السجن العالي المطل على الطريق العام وكان سور السجن عالياً جدا بحيث لا يمكن أن يتسلقه بأي حال، وفجأة وجد بجانبه قطعة خشب طويلة وعريضة قليلا مما كان يستخدمها العمال في البناء، فألقى بحذائه من على السور إلى خارج السجن، ثم أسند قطعة الخشب على الجدار وتأخر قليلا ثم قفز على السور فوجد نفسه فوق الجدار ثم قفز خارج أسوار السجن وأنجاه الله من التسليم لمصر.

فالحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، ويجيب من رجاه، ويجزي بالإحسان إحسانا ً، ويجزي بالصبر نجاة، ويكشف الضُرَّ بعد الكرب، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنّا.

فإذا ضاقت بك الأمور يا عبد الله، وصعب عليك أمرك، وكثر المكر بك ومن حولك، فالجأ إلى الصلاة والتضرع بين يدي الله عز وجل، يخفف بلاءك، ويزول كربك، وتغنم راحتك، فإن فيها الراحة والسكينة، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لبلال " أرحنا بها يا بلال ".

٢٠- الأكثار من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم:

مما يخفف البلاء كثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فبها يزيل الله الهمّ عن العبد، ويكشف بها الكرب.

روى الترمذي عن أبي بن كعب قال: قلت يارسول الله كم أجعل لك من صلاتي؟ قال: " ما شئت " قلت: الربع؟ قال: " ماشئت فإن زدت فهو خير لك " قلت: فالثلثين؟ قال: " ماشئت وإن زدت فهو خير لك " قلت: اجعل لك صلاتي كُلَّها. قال: " إذاً تُكفى همّك، ويُغفر لك ذنبك ". رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن.

قال الإمام ابن القيم –رحمه الله-: [وسئل شيخنا أبو العباس عن تفسير هذا الحديث فقال كان لأبي بن كعب دعاء يدعو به لنفسه فسأل النبي هل يجعل له منه ربعه صلاة عليه فقال إن زدت فهو خير لك فقال له النصف فقال إن زدت فهو خير لك إلى أن قال أجعل لك صلاتي كلها أي أجعل دعائي كله صلاة عليك قال إذا تكفى همك ويغفر لك ذنبك لأن من صلى على النبي صلاة صلى الله عليه بها عشرا ومن صلى الله عليه كفاه همه وغفر له ذنبه هذا معنى كلامه رضي الله عنه](جلاء الأفهام: ١ / ٧٩).

وقال شيخ الإسلام-رحمه الله-: [فإن هذا كان له دعاء يدعو به فإذا جعل مكان دعائه الصلاة على النبى كفاه الله ما أهمه من أمر دنياه وآخرته فإنه كلما صلى عليه مرة صلى الله

عليه عشرا وهو لو دعا لآحاد المؤمنين لقالت الملائكة آمين ولك بمثله فدعاؤه للنبي صلى الله عليه وسلم أولى بذلك](مجموع الفتاوى:١ / ١٩٣).

٢١- التعرف على الله في الرخاء:-

من تعرف على الله وقت الرخاء، عرفه الله في وقت الشدة، وخخف عنه مصابه، واستجاب لدعوته، وقضى له حاجته، وفرج عنه كربه، وكشف غمّه.

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تعرّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدّة ".

[يعني أن العبد إذا اتقى الله، وحفظ حدوده، وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرف بذلك إلى الله، وصار بينه وبين ربِّه معرفة خاصة، فعرفه ربُّه في الشدّة، ورعى له تعرُّفَه الله في الرخاء، فنجاه من الشدائد بهذه المعرفة] مدارج السالكين.

فمعرفة الله في وقت الرخاء بحفظ حدوده وتجنب نواهيه، والقيام بأوامره، والتقرب إليه بالطاعات، وكثرة ذكره، كل ذلك يكون سبباً في تخفيف الله على المصاب في وقت الشدّة، والنجاة من الكرب.

[إن العبد إذا تعرف إلى الله تعالى بذكره في الرخاء عرفه في الشدّة، وقد جاء أثر معناه أن العبد المطيع، الذاكر لله تعالى إذا أصابته شدّة أو سأل الله تعالى حاجة قالت الملائكة: يارب صوت معروف من عبد معروف، والغافل المعرض عن الله عز وجل إذا دعاه وسأله قالت الملائكة: يارب صوت منكر من عبد منكر] الوابل الصيب.

ويشهد لهذا قوله تعالى عن نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام {فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}.

[قيل معناه لولا أنه سبح الله هنالك، وقال ما قال من التهليل والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه والرجوع إليه للبث هنالك إلى يوم القيامة. ولبعث من جوف ذلك الحوت.

وقيل معناه {فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ} من قبل أخذ الحوت له {مِنْ الْمُسَبِّحِينَ} أي المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً. واختاره ابن جرير.

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عبَّاس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: " يا غلام إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ".

وروى ابن جرير والبزار عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة قال سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت: أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً ". فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال في نفسه ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: إنّ هذا تسبيح دواب البحر. قال فسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا إنّا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة! قال: ذلك عبدى يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. قال: فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال الله {وَهُوَ سَقِيمٌ}. هذا لفظ ابن جرير إسناداً ومتناً.

وقال ابن أبي حاتم في (تفسيره): إنّ يزيد الرقاشي قال سمعت أنس بن مالك ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال: " اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين "، فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة. فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لا يا رب ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة؟ قالوا: يا ربنا أو لا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراء ".

ولهذا قال تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ} أي الكرب والضيق الذي كان فيه {وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}. أي وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا] قصص الأنبياء لابن كثير بتصرف.

وفي قصة دنيال عليه السلام لمّا ألقاه بختنصر مع أسدين في جبّ فنجاه الله وفرج عنه فلم يؤذياه وقعدا يلعقانه.

(قال ابن أبي الدنيا... جاء بختنصر بأسدين فألقاهما في جب، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه، فمكث ما شاء الله ثم اشتهى ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب، فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام: أن أعدد طعاماً وشراباً لدانيال فقال: يا رب أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق. فأوحى الله إليه أن أعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت، ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجب فقال دانيال: من هذا؟ قال: أنا أرميا. فقال: ما جاء بك؟ فقال: أرسلني إليك ربك. قال: وقد ذكرني ربي؟ قال: نعم. فقال دانيال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي يجيب من رجاه، والحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة، والحمد لله الذي يكشف ضُرَّنا بعد كربنا، والحمد لله الذي يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا) قصص الأنبياء.

٢٢- انتظار الفرج وحسن الظن بالله:-

انتظار الفرج يخفف حمل المصاب، ويخفف البلاء، وخاصة إذا صاحبه حسن ظن بالله وثقة في أن بعد هذا الكرب وهذه المحن يأتي الفرج ويتبدل هذا الحال، فمن المحال دوام الحال، فلا ييأس العبد المؤمن من رحمة الله.

وحسن الظن بالله من مقتضيات التوحيد وعكسه من قوادح التوحيد.

قال الله تعالى: {ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من رروح الله إلا القوم الكافرون}.

وقال تعالى: {وهو الذي يتزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته}.

وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ} [الروم/٤٨، ٤٩]

وقال على لسان إبراهيم عليه السلام: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر/٥٦]

فيعقوب عليه السلام بقي سنوات طويلة بعيدا عنه ولده يوسف عليه السلام ومنقطعة عنه أخباره بل إنّ الخبر الذي نقله له أبناؤه هو أنّه قد مات وأن الذئب أكله وجاؤا إليه بدم على قميصه ليثبتوا له صدق قولهم، ومع ذلك لّما رجع أبناؤه إليه في رحلتهم الى مصر وأخبروه أن أخاهم الصغير قد أخذه الملك قال: {عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً} أي بيوسف وبأخيه الصغير الأسير في مصر عند الملك وذلك لحسن ظنّه بالله عز وجل. وما خاب ظنّه عليه السلام في ربّه عز وجلّ، ولهذا قال لأبنائه في نهاية مطاف المحنة وحينما جاء البشير بقيمص يوسف وألقاء على وجهه فارتد بصيرا: {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يوسف/٩٦]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله: [أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة] رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه

وانتظار الفرج وحسن الظن بالله يفتح على العبد الأمل، ويخفف عنه المصاب. قال الله تعالى {لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً}.

[فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة ولا سيما عند قوة الرجاء، أو القطع بالفرج، فإنه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته ما هو خفي الألطاف. وما هو فرج معجل وبه – وبغيره – يفهم معنى اسمه " اللطيف "] مدارج السالكين

فعلى العبد أن ينتظر دائماً من الله فرجاً ومخرجاً، مما هو فيه من بلاء ومحن، فمن المحال دوام الحال، فمن ساعة ضيق وهمّ وغمّ وحزن إلى ساعة فرج وفرح وسرور وبهجة.

قال الشاعر:

خليلي لا والله ما من مُلمّةٍ **** تدومُ على حيٍّ وإن هي جلّت

فإن نزلت يوماً فلا تخضعن لها **** ولا تكثر الشّكوى إذا النّعل زلّت

فكم من كريم قد بُلي بنوائبٍ **** فصابرها حتى مضت واضمحلّت

وكانت على الأيام نفسي عزيزةً **** فلما رأت صبري على الذّلّ ذلّت

وعلى العبد أن يحسن الظن بالله في أنّه سيرفع عنه هذا البلاء وهذه المحن والمصائب، وسيأتيه بالفرج من حيث لا يظن ولا يحتسب.

وفي الحديث القدسي الذي يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن رب العزة سبحانه وتعالى: " أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ما شاء ". فمن ظنّ أنّ ربّه سوف يفرج كربه ويرفع عنه البلاء والمحن ويكشف عنه كربه، فسيجد ما ظنّه بربّه، ولن يخيب رجاؤه فيه وإنّ طال زمنه.

فحقيق بكل مؤمن أن يظن بربه خيراً، وأن ينتظر منه فرجاً ومخرجاً وفضلاً ولطفاً، فإنّ من أمره بين الكاف والنون يقول للشيء كن فيكون لقمِنٌ بأن يوثق بموعوده، ويتعلق بعهوده. فإنّ لله في كل حركة حكمة، وفي كل ساعة فرجاً، وبعد كل ضيق سعة ورحمة، وبعد كل فوت ظفراً.

فكل ضيق سيأتي بعده سعة **** وكل فوت وشيك بعده الظفر

فحقيق بمن عرف هذا أن ينتظر من ربّه فرجاً بقلب واثق مطمئن من مجيئه بلا شك ولا ريب، كما أنّ بعد الليل صبحاً، وبعد القحط غيثاً، وبعد الجوع شبعاً، وبعد الظمأ رِيًّا، وبعد الفقر غِنىً، وبعد المرض عافية، وبعد الفراق اجتماعاً.

فلابد لليل أن ينجلي **** ولابد للقيد أن ينكسر.

وختاماً:

فعلى العبد المؤمن إذا أصابته مصيبة ومحنة، أو نزل به بلاء، أن يرضى بما قدره الله عليه، وأن يستسلم لحكم الله إذا لم يكن هناك من حيلة لدفعه بالأسباب الموجبة لدفعه، وعليه أن يصبر ويحتسب الأجر والثواب عند الله، فهي عن قريب إلى زوال بإذن الله، ويبقى بعدها الأجر والثواب وحسن الجزاء.

وعلى العبد المؤمن أن يوقن أنّه كلمّا اشتد البلاء قرب الرخاء، كالحبل كلمّا اشتد انقطع

اشتدي أزمة تنفرجي **** قد آذن ليلك بالبلج

فالشدائد والمحن والمصائب والكروب كلمّا اشتدت كلمّا قاربت على الانفراج والانبلاج والزوال والتحول من حال إلى حال، فما بعد ظلام الليل إلا ضوء النهار، وما بعد العسر إلا اليسر، وما بعد الهمّ والغمّ والحزن إلا الفرج والفرح والبهجة والسرور.

فما هي إلا ساعة ثم تنقضي **** ويحمد عِبَّ السير من هو سائر

وانتظارالفرج عبادة، وهو من صفات أهل الإيمان، وفي الغالب يأتي على غير ميعاد، وعند قرب اليأس منه، قال الله تعالى: {حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبُوا جاءهم نصرنا}.

فعند تناهي الشدة يأتي الفرج، وعند تضايق حلق البلاء يأتي الرخاء.

إذا تضايق أمر فانتظر فرجاً **** فأضيق الأمر أدناه إلى الفرج

فعلى العبد المؤمن أن ينتظر من الله فرجاً ومخرجاً مما هو فيه من بلاء ومحن ومصائب.

قال الله تعالى: {لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً}، وقال تعالى: {فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده}.

عسى فرجٌ يكون عسى **** نُعِلُّ نُفُوسَنَا بعسى

فلا تقنط وإن لاقيت **** همّا يقبضُ النّفسَا

فأقربُ ما يكون المرءُ **** من فرجٍ إذا يئسا

وعلى العبد أن ينتظر من الله يسراً بعد ما أصابه العسر، ذلك أن العسر بعده يسر لا شك فيه ولا ريب.

قال الله تعالى: {سيجعل الله بعد عسرٍ يُسرا}، وقال تعالى: {فإنّ مع العسر يسراً * إنّ مع العسر يسراً}، ورُوِي أنّه لّما نزلت هذه الآية، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " أبشروا فقد جاء الفرج، لن يغلب عسر يسرين " رواه الحاكم والبيهقي عن الحسن مرسلا، ورواه الطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: [والذي نفسي بيده لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر، لن يغلب عسر يسرين].

ورُوي مثل ذلك أيضاً عن عمر رضي الله عنه كما عند مالك في المؤطأ أنّه لمّا بلغه أنّ أبا عبيدة حُصر بالشام كتب إليه كتاباً قال فيه: (ولن يغلب عُسر يسرين).

قال الشاعر:

إذا اشتدّ عسرٌ فارجُ يُسراً فإنّه **** قضي الله أنّ العسر يتبعه اليسر

وقال آخر:

إذا يسَّرَ الله الأمورَ تيسرت **** ولانت قواها واستقاد عسيُرها

فكم طامعٍ في حاجةٍ لا ينالُها **** وكم آيسٍ منها أتاه بشيرُها

وكم خائفٍ صار المخيفَ ومقْترٍ**** تَموَّلَ والأحداثُ يحلو مريرُها

وكم قد رأينا من تكدُّرِ عيشةٍ **** وأُخرى صفا بعد انكدارٍ غديرُها

وعلى العبد أن ينتظر من الله فرجاً حتى مع ضيق الحال، وانسداد الأبواب، وانقطاع الأسباب. فكلمّا ضاق الحال، وسدت الأبواب، وانقطعت الأسباب جاء الفرج من أوسع الأبواب.

ولربَّ نازلة يضيقُ بها الفتى **** ذرعاً وعند الله منها المخرجُ

ضاقت فلمّا استحكمت حلقاتُها **** فُرِجَتْ وكان يظنّها لا تُفرجُ

فالفرج غالباً ما يأتي بعد شدة الكرب، وضيق الحال، وإدلهام الخطوب، وانغلاق الأبواب، وانقطاع الأسباب.

وهو سنّةٌ ماضية، ومطية مسلمةٌ، كالصبح بعد الليل لا شك فيه ولا ريب.

وهذا أمر واضح وجلي في قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وفي قصص أتباعهم ومن بعدهم كما ذكرنا بعضها فيما سبق.

فسبحان من جعل بعد العسرِ يسرا، وبعد الشدّة والكرب فرجاً ومخرجاً، وبعد الضيق سعة، وبعد الهمّ والغمّ والحزن فرحاً وسروراً، وبعد الذل والضعف عزة وتمكيناً

وفي كتاب (الفرج بعد الشدّة) للتنوخي رحمه الله أكثر من مائتي قصة لمن نُكِبوا، أو حُبِسوا، أو شُرِدوا، أو طُرِدوا، أو عُذِبوا، أو جُلِدوا، ثم ما هي إلا أيام وفي ذروة المدلهمات وقمة الأزمات أتاهم الفرج من الله من حيث لم يكونوا يحتسبون، وعلى حين غفلة.

كم فرج بعد إياس قد أتى **** وكم سرور قد أتى بعد الأسى

فالعبد المؤمن مبتلى دهره كلّه لا محالة، إمّا بنعماء وإمّا بضراء.

فإذا أصابته النعماء ففرضه فيها الشكر، وذلك بالاعتراف بها باطناً، والتحدث بها ظاهراً، وتصريفها في مرضاة الله تعالى.

وإذا أصابته المحن ففرضه فيها الصبر، وذلك بحبس النفس عن التسخط بالمقدور، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم وشق الثياب ونتف الشعر.

ومع نهاية هذه الأسطر نسأل الله أن يوفقنا جميعاً لشكر ما يسوقه الله لنا من منح في صورة محن، وإلى ما يسوقه إلينا من نعم في صورة نقم، وأن يوفقنا لشكر نعمائه، والصبر على ابتلائه، والرضى بقضائه. فالمصيبة ليست في ذات البلاء، وإنما المصيبة في أن نُحْرَمَ أجر البلاء، فيكون الأمر عندئذ بلاء على بلاء.

ونسأل الله دوام العافية.

[والله سبحانه وتعالى المسؤول المرجو الإجابة أن يتولاكم في الدنيا والآخرة وأن يسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وأن يجعلكم ممن إذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفك عبد عنها أبداً، فإن العبد دائم التقلب بين هذه الأطياف الثلاثة] الوابل الصيب.

هذا ونسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا وباسمه الأعظم الذي اتخذه لنفسه، وبكل اسم هو له سمى به نفسه، أو أنزله في كتابه، أو علمه أحداً من خلقه، أو استأثر به في علم الغيب عنده، أن يجعل لنا وللمسلمين يسراً بعد عسر، وفرجاً بعد ضيق، وفرحاً بعد حزن، وبهجة وسروراً بعد همّ وغمّ.

ونسأله سبحانه الرضى عند القضاء، والصبر عند البلاء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء، وأن يبلغنا برحمته منازل الشهداء.

ونسأله سبحانه لنا وللمسلمين فرجاً قريباً، وصبراً جميلاً، ورزقاً حلالاً واسعاً طيباً مباركاً فيه، والعافية من جميع البلايا، وشكر العافية.

ونسأله سبحانه أن يفك أسر إخواننا المأسورين، ويجعل لهم من كلّ همّ فرجا، ومن كلّ ضيق مخرجا.

وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك.

ـــــانتهى ـــــ

ادعوا لإخوانكم المجاهدين

إخوانكم في

مركـــز الفجـــر للإعـــلام